تفسير سورة آل عمران

بأسلوب بسيط جدا

رامي حنفي محمود

الألوكة
www.alukah.net

سلسلة كيف نفهم القرآن؟ (*)

(تفسير سورة آل عمران بأسلوب بسيط جداً)

١. تفسير الربع الأول من سورة آل عمران

الآية ١: ﴿الم﴾: سَبَقَ الكلام عن الحروف المُقطَّعة في أول سورة البقرة، فراجِعْها إنْ شِئت.

الآية ٢، والآية ٣، والآية ٤: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: أي الذي لا يَستحق العبادة إلا هو، ثم ذَكَرَ سبحانه الدليل على ذلك، فأخبَرَ أنه ﴿الْحَيُّ﴾ الذي لا يموت، وكُلُّ حَيٍّ غيره مَسبوقٌ بالعدم، ويَلحقه الفَناء، فهو وحده المُتَّصِف بالحياة الكاملة، وهذه الحياة الكاملة تَتطَلَّب بالضرورة وجود جميع الصفات – التي لا تتم الحياة إلا بها – (كالإرادة والعِلم والسمع والبصر والقدرة والقوة والعظمة والعِزّ، وغير ذلك من صفات الجلال والكمال)، وهو سبحانه ﴿الْقَيُّومُ﴾: أي القائم على كل خلقه بالتربية والرعاية والحفظ والرزق والتدبير، ولذلك افتقرتْ إليه جميع مخلوقاته، واستغنى هو سبحانه عن خلقه.

♦ ومِن مَظاهر قيامِهِ تعالى بشؤون عباده ورحمته بهم أنْ ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ﴾ – أيها الرسول – ﴿الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ (وهو القرآن الذي لا شَكَّ فيه)، فكُلُّ ما فيه حقٌّ وصِدق، فكانَ ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: أي مُوافقًا لِما كانَ قبله مِن صحيح الكُتب السماوية، لأنّ مَصدرها جميعًا واحد، وهو اللهُ تعالى، ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ﴾ – أي مِن قبل نزول القرآن – فأنزَلَها تعالى ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾: أي لإرشاد الناس إلى الإيمان، وإلى ما فيهِ صلاح دينهم ودنياهم، ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾: أي وأنزَلَ سبحانه ما يُفَرِّق به بين الحق والباطل، كالكتب السماوية والمُعجزات، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ بمن جَحد حُجَجَهُ وأدِلَّته وتَفرُّده بالعُبودية.

(*) وهي سلسلة تفسير لآيات القرآن الكريم بأسلوب بسيط جدًّا، وهي مُختصَرة من (كتاب: "التفسير المُيَسَّر" (بإشراف التركي)، وأيضًا من "تفسير السّعدي" ، وكذلك من كتاب: " أيسر التفاسير" لأبو بكر الجزائري) (بتصرف)، عِلمًا بأنّ ما تحته خط هو نص الآية الكريمة، وأما الكلام الذي ليس تحته خط فهو التفسير.

– واعلم أن القرآن قد نزلَ مُتحدياً لقومٍ يَعشقون الحَذفَ في كلامهم، ولا يُحبون كثرة الكلام، فجاءهم القرآن بهذا الأسلوب، فكانت الجُملة الواحدة في القرآن تتضمن أكثر مِن مَعنى: (مَعنى واضح، ومعنى يُفهَم من سِيَاق الآية)، وإننا أحياناً نوضح بعض الكلمات التي لم يذكرها الله في كتابه (بَلاغةً)، حتى نفهم لغة القرآن.

الآية ٥: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ – فعِلْمُهُ سبحانه مُحيطٌ بجميع الخلائق، وسيُجازي المُكَلَّفين منهم على أعمالهم.

الآية ٦: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي يَخلقكم في أرحام أُمَّهاتكم كما يشاء (مِن ذكرٍ وأنثى، وأبيض وأسمر وغير ذلك)، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا مَعبودَ بحقٍّ إلا هو سبحانه، وهو ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يَمنعه مانع مِمَّا أراد، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أمْرِهِ وتدبيره.

الآية ٧، والآية ٨: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي القرآن الكريم ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ أي: مِنْ القرآن آياتٌ واضحات الدِّلالة، لا تَحتمل إلا معنًى واحدًا، فلذلك ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾: أي هُنَّ أصل الكتاب، بحَيثُ يُرجَعُ إلى هذه الآيات عند وجود التباس، أو إشكال في الفَهم، ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾: أي وهناك آياتٌ أُخَر تَحتمل بعض المعاني، فلا يُعلَمُ المُراد منها إلا بضَمِّها إلى الآيات المُحكَمات، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾: أي مرضٌ وضلال، فهؤلاء لِسُوء قصدهم: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾: أي فيَذهبون إلى المُتشابه وحده، دونَ أن يَرجعوا إلى المُحكَم الواضح، وذلكَ ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾: أي طلبًا لعمل الفتنةِ، ليُثيروا الشُّبُهات عند الناس كي يُضِلوهم، ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ أي: وحتى يُفَسِّروا هذه الآيات المُتشابهات على ما يُوافق مَذاهبهم الباطلة، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: ولا يَعلم حقيقة معاني هذه الآيات إلا الله، ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾: يعني وأما المُتمكنونَ ﴿فِي الْعِلْمِ﴾ - وَهُم أهل العِلم اليَقيني، الذين رَسختْ أقدامهم في معرفة الحق، فلا يَزِلُّون مِن أجلِ شُبهة أو باطل – فهؤلاء ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾: أي صَدَّقنا بهذا القرآن، ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾: أي فالقرآنُ كله – المُحكَم منه والمُتشابه – قد جاءنا مِن عند ربنا على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ويَرُدُّون مُتشابِهه إلى مُحكَمِه.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ يعني: وإنما الذين يَفهمون المعاني على وجهها الصحيح ويتَّعظونَ بها: هم أصحاب العقول السليمة، فهؤلاء يَسألون ربهم الثبات، ويقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ﴾ أي لا تُضِلّ ﴿قُلُوبَنَا﴾، ولا تجعلها تميل عن الحق بسبب شُبهةٍ أو شهوةٍ أو فِتنة، وذلك ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ إلى الحق وعَرَّفتنا به، ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾: أي وامنحنا مِن فضلك رحمة واسعة، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ أي كثير الفضل والعطاء.

الآية ٩: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ﴾ يعني: يا ربنا، إننا نُقِرُّ ونَشهد بأنك ستجمع الناس ﴿لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: أي ليومٍ لا شَكَّ في وقوعه – وهو يوم القيامة – لِتُجازي فيه الناس بأعمالهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

الآية ١٠: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾: أي لن تدفع عنهم مِن عذاب الله شيئًا إن وقع بهم في الدنيا، ولن تدفعه عنهم في الآخرة، ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ﴾ أي حطب ﴿النَّارِ﴾.

الآية ١١: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾: يعني إنّ شأنَ الكافرين في تكذيبهم وما يَنزل بهم من العذاب، كشأن فرعون وأتباعه ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فقد ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: يعني إنكَروا آيات الله الواضحة ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾: أي فعاجَلهم اللهُ بالعقوبة بسبب تكذيبهم وعِنادهم ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

الآية ١٢: ﴿قُلْ﴾ أيها الرسول ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِن اليهود وغيرهم، الذين استهانوا بنصرك في بَدْر، وقالوا لك: (لا يَغُرَّنَّك أنك قاتلتَ مَن لا يُحسِنُ الحرب فانتصرتَ عليهم، إنك إنْ قاتلتَنا ستعلمُ أنَّا نحن الناس، وأنك لم تَلقَ مِثلنا)، فلمَّا قالوا قولتهم هذه يُهَددون بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، أمَره اللهُ أن يقول لهم: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ في الدنيا، وستموتون على الكفر، ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ﴾ لِتكون فِراشًا دائمًا لكم ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾: أي وهي بِئسَ الفِراش والمُستقرُّ.

♦ وبالفِعل، فقد جَمَعهم الرسول صلى الله عليه وسلم، وقال لهم: ﴿يا مَعشرَ يَهود، احذروا مِن الله مِثلَ ما نَزَلَ بقريش يومَ بدر، قبل أن يَنزل بكم ما نزل بهم، وقد عرفتم أني نبيٌّ مُرسَل، تجدون ذلك في كتابكم وعَهْدِ الله إليكم﴾، (وقد صَدَقَ القرآنُ فيما أخبر به مِن هزيمة اليهود، حينما قال لهم: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾، فكانَ هذا دليلاً على أن القرآن وَحيٌ من الله، وأن محمدًا هو رسول الله، وأن الإسلام هو دين الله الحق).

الآية ١٣: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ - أيها اليهود المُعاندون - ﴿آيَةٌ﴾: أي دلالة وعِبرة عظيمة ﴿فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾: أي في جماعتين تقابلَتا في معركة بَدْر، منهم ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أي مِن أجلِ دين الله، وهم محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ﴿وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾ تقاتل مِن أجل الباطل، ﴿يَرَوْنَهُمْ﴾ أي: وهذه الجماعة الكافرة ترى المؤمنين ﴿مِثْلَيْهِمْ﴾: أي يَزيدون عليهم في العدد زيادة كبيرة، تبلغ المُضاعَفة، وأكَّدَ على ذلك بقوله: ﴿رَأْيَ الْعَيْنِ﴾، (وقد جعل اللهُ ذلك سببًا في نصر المسلمين عليهم، فهزموهم وقتلوا زعماءهم، وأسَرُوا كثيرًا منهم)، ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ (فاللهُ تعالى يَنصر مَن نَصر دينه، ويَخذل مَن كَفر به).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الذي حَدَث ﴿لَعِبْرَةً﴾ عظيمة ﴿لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾: أي لأصحاب البصائر النافذة، والعقول الكاملة، الذين يَهتدون إلى حِكَم الله تعالى وأفعاله، وإلاَّ، فلو نَظَرَ الناظر إلى مجرد الأسباب الظاهرة (كالأعداد والسلاح)، لَتأكَّدَ أنه يَستحيل هزيمة هذه الفئة القليلة لِتلك الفئة الكثيرة، ولكنْ كانَ وراء هذا السبب – الذي يُشاهَد

بالأبصار - سببٌ أعظم منه، وهو نَصْرُهُ تعالى لعباده المؤمنين بجنوده التي لا يَعلمها إلا هو (كالملائكة، وإلقاء الرُّعب في قلوب الكافرين، وتكثير أعداد المؤمنين في عيون أعدائهم، وغير ذلك).

الآية ١٤: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ﴾: يعني الإموال الكثيرة ﴿مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾: أي الخيل الحِسَان (والحِسان: جَمْع حَسَن)، ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ من الإبل والبقر والغنم (وهي الضأن والماعز)، ﴿وَالْحَرْثِ﴾: يعني الإارض المتَّخَذة للغَرس والزراعة، ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وزينتها الفانية، ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾: أي عِنْدَهُ حُسن المَرجع والثواب، وهو الجَنَّة.

الآية ١٥، والآية ١٦، والآية ١٧: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ﴾: يعني هل أُخبركم بخيرٍ مما زُيِّن للنَّاس في هذه الحياة الدنيا؟، والجواب: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ يعني: إنّ الذين راقبوا الله تعالى وخافوا عقابه، هؤلاء لهم في الدار الآخرة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: أي حدائق عجيبة، تجري أنهارُ الماء والعسل واللبن والخمر مِن تحت قصورها وأشجارها، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يخرجون منها أبداً ﴿وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ من كل أنواع الدَنَس الحِسيِّ (كالبَول والحَيض)، وكذلك مِن الدَنس المعنوي (كالكذب وسُوء الخُلُق)، ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾ يُحِلُّهُ سبحانه عليهم، فلا يَغضب عليهم أبداً، ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾ أي آمَنَّا بك، واتَّبَعنا رسولك محمدًا صلى الله عليه وسلم ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ ﴿وَقِنَا﴾ أي: وأجِرنا واحفظنا من ﴿عَذَابَ النَّارِ﴾.

♦ وهؤلاء المتقون كانوا في الدنيا: ﴿الصَّابِرِينَ﴾ على الطاعات، وعن المعاصي، وعلى ما يُصيبهم من الابتلاءات، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما يَزالُ البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يَلقى الله وما عليه خطيئة) (انظر السلسلة الصحيحة: ج ٥/ ٣٤٩)، ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ في الأقوال والأفعال والنيَّات ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾: أي الطائعين المُنقادين لله تعالى، ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ الذين يُنفِقونَ مِن أموالهم سِرّاً وعَلانية، ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾: أي الذين يُكثرون من الاستغفار - وهو طلب المغفرة - قبل طلوع الفجر بقليل (وهو وقت السحور)، (وقد خَصَّ الله ذلك الوقت بالاستغفار، لأنَّه وقتٌ يُرجَى فيه قبول الاستغفار، وإجابة الدعاء).

الآية ١٨: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: أي شَهِدَ اللَّهُ تعالى أَنَّهُ لا معبودَ بحقٍّ إلا هو، وكل معبودٍ سوَاهُ باطل، وهذا هو ما يُعرَف بـــ ﴿توحيد الأُلُوهِيَّة﴾، وهو إفرادُ الله وحده بجميع أنواع العبادة ﴿كالصلاة والصيام والدعاء والذبح والنذر والطواف والاستغاثة والاستعانة - فيما لا يَقدر عليه الخلق﴾، وغير ذلك من أفعال العبد.

♦ وهذا النوع من التوحيد هو الذي لم يُقِرَّ به مُشركوا العرب، على الرغم مِن أنهم كانوا يَعترفون بأنّ اللهَ وحده هو المُتفرِّد بالخَلق والرزق والتدبير، وغير ذلك من أفعال الرَبّ سبحانه، وهو ما يُعرَف بـــ (توحيد الرُّبوبِيَّة)، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾.

♦ ورغم إقرار المشركين بتوحيد الرُّبوبية، فإنّ ذلك لم يُنَجِّهم من الخلود الأبدي في نار جهنم، إذ إنه لابُدّ مِن أن يَجمعوا بين توحيد الألوهية وتوحيد الرُّبوبية (فكما اعترفوا بأنه وحده الخالق الرازق: لابد أن يعترفوا – أيضًا – بأنه وحده المستحق للعبادة، وأن يُوَحِّدوا له عبادتهم)، ولكنهم تكبروا عن الإقرار بتوحيد الأُلوهية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾، وذلك لأنهم كانوا يعلمون أنهم إذا أقرُّوا بكلمة: ﴿لا إله إلا الله﴾، فإنهم سوف يَنقادون لأمْر اللهِ وحده، ولن يُحَكِّمُوا أهواءهم وشهواتهم في أيّ أمْرٍ بعد ذلك.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾: أي وقد شهدتْ الملائكة، وشهد أهل العلم – أيضًا – على أنه لا معبود بحق إلا هو سبحانه، ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾: أي قائمًا بالعدل، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

****

٢. تفسير الربع الثاني من سورة آل عمران (*)

الآية ١٩: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾: يعني إنَّ الدين الذي ارتضاهُ اللهُ لخَلقِه، وأرسَلَ به رُسُله، ولا يَقبَل غيره هو الإسلام (وهو الانقياد لله وحده بالطاعة، والاستِسلام له بالعُبودية، والسَلامة من الشِّرك، واتّباع الرُسُل فيما بَعَثهم اللهُ به من التوحيد)، حتى خُتِموا بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم، الذي لا يَقبلُ اللهُ مِن أحدٍ دينًا - بَعدَ بعثتِهِ - إلا الإسلام الذي أُرسِلَ به، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

﴿وَمَا اخْتَلَفَ﴾: يعني وما وقع الاختلاف بين ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ مِن اليهود والنصارى، فتفرَّقوا شِيَعًا وأحزابًا ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾: يعني إلا مِن بعد ما تبيَّنوا أن محمدًا صلى الله عليه وسلم هو النبي الذي وُعِدوا به في التوراة والإنجيل، وذلك ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾: أي ظلمًا وحسدًا، وحِفاظًا على المنافع التي بينهم، وطلبًا للدنيا، لأنّ كل فرقةٍ منهم كانت تتمنَّى أن يكون هذا النبي الخاتَم مِن عندها، حتى تكون لها الرئاسة والسُّلطة الدينية والدنيوية دونَ غيرها، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي يَجحد بها - وخصوصًا مَن ترَكَ الحق بعدما عرفه - ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي فإنّ اللهَ يُحصِي عليه ذنوبَ كُفره وسيئات عِصيانه، ثم يُحاسبه عليها ويَجزيه بها، وهو سبحانه سريع الحساب، فلا يَشغله شيءٌ عن آخر، ولا يُتعِبُهُ إحصاءٌ ولا عدد.

الآية ٢٠: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾: أي فإن جادلوك بعد أن أقمتَ عليهم الحُجَّة ﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾: أي أخلصتُ قصدي وتوجهي، وأخلصتُ جميع أعمالي القلبية والبدنية لله وحده، وانقدتُ له بقلبي ولساني وجميع جوارحي، (وإنما خَصَّ الوجه لأنه أشرف الجوارح، وعليه تظهر المَشاعر، وبه يَحصُل التوجُّه إلى كل شيء)، (فإذا خضع وجه العبد لله: خضعتْ له جميع جوارحِه، فلا يُشرك بعبادته أحدًا)، ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾: أي وكذلك مَن اتبعني من المؤمنين، أخلَصوا توجههم وأعمالهم لله، وانقادوا لأمره، ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ﴾ وهم مُشرِكوا العرب: ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾؟ ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ إلى الطريق المستقيم، ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: وإن أعرضوا عن

(*) وهي سلسلة تفسير لآيات القرآن الكريم بأسلوب بسيط جدًّا، وهي مُختصَرة من (كتاب: "التفسير المُيسَّر" (بإشراف التركي)، وأيضًا من "تفسير السّعدي" ، وكذلك من كتاب: " أيسر التفاسير" لأبو بكر الجزائري) (بتصرف)، عِلمًا بأنّ ما تحته خط هو نص الآية الكريمة، وأما الكلام الذي ليس تحته خط فهو التفسير.

- واعلم أن القرآن قد نزلَ مُتحدياً لقومٍ يَعشقون الحَذفَ في كلامهم، ولا يُحبون كثرة الكلام، فجاءهم القرآن بهذا الأسلوب، فكانت الجُملة الواحدة في القرآن تتضمن أكثر مِن مَعنى: (مَعنى واضح، ومعنى يُفهَم من سِيَاق الآية)، وإننا أحياناً نوضح بعض الكلمات التي لم يذكرها الله في كتابه (بَلاغةً)، حتى نفهم لغة القرآن.

الإسلام ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾: أي فما عليك إلا البلاغ، وقد أبلغتَهم وأقمتَ عليهم الحُجَّة، وحسابُهم على الله تعالى ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

الآية ٢١، والآية ٢٢: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي يَجحدون بها كِبراً وعِناداً مِن بعد ما تبيَّنَ لهم الحق ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ ظلمًا ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾: أي ويَقتلون الناس الذين يَأمرون بالعدل واتِّباع طريق الأنبياء: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: أي فأخبِرْهم بخبرٍ يَظهرُ أثره على بَشرَةِ وجوههم ألمًا وحسرة، وهو العذاب المؤلم – للأبدان والقلوب والأرواح – في النار، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي بَطلَتْ أعمالهم ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، فلا يُقبَلُ منهم عملٌ ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ يَنصروهم مِن عذاب الله تعالى.

الآية ٢٣: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾ حال ﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾: أي آتاهم اللهُ عِلماً من التوراة ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ﴾: أي يُدْعَوْنَ إلى كتابهم الذي يؤمنون به وهو التوراة ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾: أي لِيَفصل بينهم فيما اختلفوا فيه، ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ لأنّ الحُكم لم يوافق أهواءهم، ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾: أي وهم مِن عادتهم أنهم دائمًا معرضون عن الحق.

الآية ٢٤: ﴿ذَلِكَ﴾ الانصراف عن الحق ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: أي بسبب أنهم ﴿قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ وهي الأيام التي عبدوا فيها العِجل، وهذا اعتقادٌ فاسد لا دليل عليه، ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: أي وهذا الافتراء والاعتقاد الفاسد – وهو اعتقادهم بأنهم لن يُعذَّبوا إلا أيامًا قليلة – هو الذي جَرَّأهم على الله تعالى، وعلى استهانتهم بدينه (وهو الإسلام)، وجَرَّأهم كذلك على استمرارهم على دينهم الباطل الذي خَدَعوا به أنفسهم.

الآية ٢٥: ﴿فَكَيْفَ﴾ يكونُ حالهم ﴿إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهو يوم القيامة ﴿وَوُفِّيَتْ﴾ – في ذلك اليوم – ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

الآية ٢٦، والآية ٢٧: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ﴾: أي تمنح المُلك والمال والتمكين في الأرض ﴿مَنْ تَشَاءُ﴾ مِن عبادك ﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ ﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ لا بِيَدِ غيرك، تُفيضُ الخيرَ على مَن تشاء، وتَمنعه عَمَّن تشاء ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يَمتنع عليك أمْرٌ من الأمور، بل الأشياءُ كلها طَوْع مَشيئتك وقدرتك، ومِن دلائل قدرتك – سبحانك – أنك ﴿تُولِجُ﴾: أي تُدخِل ﴿اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ ﴿وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ فيَطولُ هذا ويَقصُر ذاك، ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كإخراج الزرع من

الحَب، والمؤمن من الكافر، ﴿وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ كإخراج البيض من الدجاج، والكافر من المؤمن، ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

الآية ٢٨: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: يَنهَى اللهُ المؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء – بالمَحبة والتأييد والمَعونة والنُصرة – على إخوانهم المؤمنين، ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾: أي ومَن يَتولهم ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾: أي فاللهُ تعالى بريءٌ منه – ومَن بَرِئَ اللهُ منه فقد هَلك – ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾: يعني إلا أن تكونوا ضِعافًا خائفين، تعيشون تحت سُلطانهم، فقد رَخَّصَ اللهُ لكم في أن تُعطوهم (حلاوة لسانكم) بكلمات المُجامَلة والمُلاطفة، مع مُخالفتهم بقلوبكم وأعمالكم، فتَتَّقوا بذلك شَرَّهُم وأذاهم حتى تَقوى شَوكتكم، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ في أن تتخذوا أعداءه أولياءَ ضد أوليائه، فاتقوه وخافوهُ ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾، فيُجازي كُلاًّ بعمله.

الآية ٢٩: ﴿قُلْ﴾ للمؤمنين: ﴿إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ من مَحبة الكافرين ونُصرتهم ﴿أَوْ تُبْدُوهُ﴾ يعني أو تُظهِروا ذلك للناس: ﴿يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ وسيحاسبكم عليه، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: أي وعِلمُهُ تعالى مُحيطٌ بكل ما في السماوات وما في الأرض، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: أي وله القدرة التامة على كل شيء.

♦ ورغم أنه كان مِن المُتوقع – بعد أنْ ذكرَ تعالى عِلمَهُ الخاص (وهو عِلمه بما في الصدور)، وبعد أن ذكرَ عِلمه العام (وهو عِلمه بجميع ما في السماوات والأرض) – أن يقول بعدها: (والله بكل شيء عليم)، ولكنه سبحانه أرادَ إثبات صفة القدرة بعد إثباتِهِ لصفة العِلم، حتى يَكمُلَ بذلك تحذيرُهُ للعُصاة، فكأنه سبحانه أراد أن يقول: (ويُحذِّركم اللهُ نفسَه، فلا تتجرَّؤوا على عِصيانه ومُوالاةِ أعدائه: إذ إنه ما مِن معصية – خَفيةٍ كانت أو ظاهِرة – إلاَّ وهو مُطَّلِعٌ عليها، وقادرٌ على العقاب بها، وإنْ أنظرَ مَن أنظر، فإنه سبحانه يُمهِل، ثم يأخذ أخْذَ عزيزٍ مُقتدِر).

♦ واعلم أنَّ قوله تعالى: ﴿إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾، فيهِ إرشادٌ إلى تطهير القلوب، واستحضار عِلم اللهِ تعالى بما فيها في كل وقت، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم – كما في صحيح مسلم –: (إنّ اللهَ لا يَنظر إلى صوركم وأموالكم، ولكنْ ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)، فالقلب هو مَحلُّ نظر الرَبّ، فلذلك ينبغي أن يَستحي العبد أن يَرى اللهُ تعالى في قلبه أيَّ فِكْرٍ رديء، بل عليه أن يُشغِلَ فِكرَهُ فيما يُقربه إلى ربه (مِن نصيحةٍ يَنصحُ بها عباده، أو تدبُّر لآيةٍ من كِتابه، أو تفكُّر في عظمتِهِ تعالى ونعَمِه، فيَستشعر مَثَلاً أنَّ عافيةَ الله فضْل، وأن بلاءهُ عَدْل: إذ إنه لو عامله اللهُ بعَدْلِه لأَهْلَكَهُ في الحال، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾، فبذلك يَشعر أنه لا يَستحق كل ما هو فيه من النِّعم بسبب مقابلته لِنِعَم اللهِ بالعِصيان،

فساعتَها ينطقُ قلبُهُ بكلمة: (الحمدُ لله – التي تملأ الميزان - قبل أن يَنطق بها لسانه، وذلك على كل لحظة عافية هو لا يَستحقُّها.

الآية ٣٠: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾: أي يَنتظرها لتُجزَى به، ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾ تجده أيضًا في انتظارها، و ﴿تَوَدُّ﴾ أي تتمنى ﴿لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا﴾ أي زمنًا ﴿بَعِيدًا﴾، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ فاستعدوا لذلك اليوم، وخافوا بَطشَ الله وعقابه إن عصيتموه، ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾: أي ومع شدَّة عقابه، فإنه سبحانه رءوفٌ بالعباد، إذ لم يُعاجلهم بالعقوبة، مع قدرته على ذلك.

الآية ٣١: ﴿قُلْ﴾ أيها الرسول: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ حقًّا ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فهل هناك شيء أفضل مِن مَحبة الله تعالى لعبده، وغفرانه لذنوبه؟! فوالله لو أيْقنَ العبدُ ذلك، لكانَ حريصًا – كُلَّ الحِرص – على التَمَسُّك بسُنَّة النبي صلى الله عليه وسلم والاقتداء به في أقواله (كالمُداومة على أذكار الصباح والمساء، وأذكار النوم، وغير ذلك من الأذكار والأدعِيَة التي صَحَّتْ عنه صلى الله عليه وسلم)، وكذلك الاقتداء به في أفعاله (كالصلاة كما كان يُصلي، والوضوء مثل وضوئه وغير ذلك)، وكذلك التأدُّب بآدابه في الطعام والشراب وغير ذلك، وكذلك التخلق بأخلاقه (قدر المُستطاع)، فقد كان صلى الله عليه وسلم لا يَغضب لنفسه، وإنما كان يَغضب إذا انتُهِكَ حَدٌّ مِن حدود الله.

♦ ويُلاحَظُ هنا أنّ الله تعالى قال: ﴿يُحْبِبْكُمُ﴾، ولم يقل: (يُحِبُّكُم)، وذلك لِيُوَضِّح لنا أنّ هذا الأمر يأتي بالتَدَرُّج، فكلما ازداد اتِّباعُك للنبي صلى الله عليه وسلم، كلما ازدادت مَحبة الله تعالى لك، وقد قال الحسن البَصْرِيُّ – رحمه الله – عن هذه الآية: (ادَّعَى قومٌ أنهم يحبون الله، فأنزل اللهُ هذه الآية مِحْنَةً لهم - أي امتحانًا لهم – إن كانوا صادقين في حب الله تعالى، فليَتَّبعوا سُنَّة النبي صلى الله عليه وسلم)، فهذه الآية حاكمة على كل مَن ادَّعَى محبة الله تعالى وهو ليس مُتَّبِعًا لسُنَّةِ نَبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وليسَ مُطِيعًا له في أمْرِهِ ونَهْيِه.

♦ واعلم أنّ هذا الاتباع شرطٌ من شروط قبول العمل (مِثل الإخلاص تمامًا)، بحيث إنَّ العبد إذا فعل أمرًا مُبْتَدَعًا (لم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه الكِرام مِن بعدِه) فإنّ ذلك العمل لا يَقبله اللهُ منه: فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم – كما في الصحيحين –: (مَن عمل عملاً ليس عليه أمرُنا فهو رَدٌّ) أي فهو مَردودٌ على صاحبه، وقد أخبر النبي صلَّى الله عليه وسلَّم – كما في صحيح مسلم – أنّ هناك أناسًا مِن أمته سوف يُطرَدون عن حَوضه يوم القيامة – رغم شدة الحر والعطش، ورغم حدوث الأمل لهم في النجاة بعدما رأوا الحَوض –

فيناديهم صلى الله عليه وسلم: (ألاَ هَلُمَّ)، فيُقالُ له: (إنَّهم قد بَدَّلوا بَعدَك)، فيقول لهم: (سُحقًا سُحقًا – أي بُعدًا بُعدًا – لَمن بَدَّلَ بَعدي)، ففي هذا دليل على خطورة التفريط في اتباع سُنته صلَّى الله عليه وسلَّم .

الآية ٣٢: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ باتباع كِتابه، ﴿وَالرَّسُولَ﴾: أي وأطيعوا الرسول باتباع سُنته في حياته وبعد مماته، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: أي فإن أعرضوا عنك، وأصَرُّوا على ما هُم عليه مِن الكفر والضلال، فاعلم أنهم ليسوا أهلاً لِمَحَبَّة الله تعالى لهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

****

٣. تفسير الربع الثالث من سورة آل عمران (*)

الآية ٣٣، والآية ٣٤: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى﴾ أي اختار ﴿آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ﴾ وفضَّلهم ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: أي على عالَمِي زمانهم، وهؤلاء الأنبياء والرسل كانوا ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾: أي سلسلة طُهْر متواصلة في إخلاصهم لله تعالى وتوحيده والعمل بوَحْيِه، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوال العباد ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيَّاتهم وأفعالهم، ولذلك يَصطفي مِنهم مَن يَعلمُ استقامته قولاً وفِعلاً، وهذا مِثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

الآية ٣٥: ﴿إِذْ﴾: أي اذكر حينَ ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ﴾ أي جعلتُ لك ﴿مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ أي خالصًا لك، لخِدمة بيت المَقدس ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾ لدعائي ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنيَّتي.

الآية ٣٦: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ لا تصلح للخدمة في بيت المقدس، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ وسوف يَجعل لها شأنًا، ثم قالت امرأة عِمران: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ﴾ الذي أردتُ للخدمة ﴿كَالْأُنْثَى﴾ في ذلك، لأنّ الذَكَر أقوى على الخدمة، ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا﴾: أي أحَصِّنها ﴿بِكَ﴾ ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾: أي وكذلك أحَصِّن ذريَّتها بك ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أي المطرود من رحمتك.

الآية ٣٧: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾: أي فاستجاب اللهُ دعاءها، وقَبِلَ منها نَذرها – ولم يَقبل أنثى مَنذورة غير مريم – وكذلك عصم مريم وولدها مِن مَسِّ الشيطان عند الولادة، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم – كما في الصحيحين –: (ما مِن مولودٍ يُولد إلا والشيطانُ يَمَسُّهُ حين يُولَد، فيَستَهِلُّ صارخًا مِن مَسّ الشيطان، إلا مريم وابنها)، وذلك استجابةً لدعاء امرأة عمران: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾، واعلم أنّ كلمة: ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ توضح أنّ هناك زيادة في رضاه تعالى عن امرأة عمران.

﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾: أي وتولَّى ابنتها مريم بالرعاية والتربية منذ ولادتها، فقد جعل زكريا عليه السلام كافلاً لها، قال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ فأسكَنَها في مكان عبادته: لِيُرَبِّيها على أكمل الأحوال، فنشأتْ في عبادة ربها، وكانَ

(*) وهي سلسلة تفسير لآيات القرآن الكريم بأسلوب بسيط جدًّا، وهي مُختصَرة من (كتاب: "التفسير المُيسَّر" (بإشراف التركي)، وأيضًا من "تفسير السّعدي" ، وكذلك من كتاب: " أيسر التفاسير" لأبو بكر الجزائري) (بتصرف)، عِلمًا بأنّ ما تحته خط هو نص الآية الكريمة، وأما الكلام الذي ليس تحته خط فهو التفسير.

– واعلم أن القرآن قد نزلَ مُتحدياً لقومٍ يَعشقون الحَذفَ في كلامهم، ولا يُحبون كثرة الكلام، فجاءهم القرآن بهذا الأسلوب، فكانت الجُملة الواحدة في القرآن تتضمن أكثر مِن مَعنى: (مَعنى واضح، ومعنى يُفهَم من سِيَاق الآية)، وإننا أحياناً نوضح بعض الكلمات التي لم يذكرها الله في كتابه (بَلاغةً)، حتى نفهم لغة القرآن.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ - وهو مكان صلاته - ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ هنيئًا مُعَدًّا فـ ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾ يعني: مِن أين لكِ هذا الرزق الطيب؟ ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

الآية ٣٨: ﴿هُنَالِكَ﴾: أي في هذا المكان المبارك الذي حدثتْ فيه هذه الكَرامة لمريم: ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ فـ ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أي ولدًا صالحًا مباركًا، (وقد قلنا بأنّ المقصود بالذرية هنا هو الذكر وليس الأنثى، لأنّ اللهَ سبحانه قد أخبرَ في آيةٍ أخرى أنّ زكريا دعاهُ فقال: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾)، ثم أتَمَّ زكريا دعاءه، فقال: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أي لِمَن دَعاك.

♦ وفي هذا إرشادٌ إلى اغتنام الدعاء في الأماكن المباركة (كالمساجد بصفة عامة)، (وكالبيت الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى) بصفة خاصة، وكذلك في الأزمِنة المباركة (كشهر رمضان، والعشر الأوائل من ذي الحجة، ووقت نزول المطر، وقُبَيْل طلوع الفجر، وفي آخر ساعة من يوم الجمعة، وغير ذلك).

الآية ٣٩: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾ أي يُخبرك بخبرٍ يَسُرُّك، وهو أنه رزقك ﴿بِيَحْيَى﴾ الذي سيكونُ ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾: أي سيكونُ مُصَدِّقًا بعيسى ابن مريم – الذي سيكونُ وُجودُهُ بكلمةٍ مِن الله، وهي كلمة: (كُن) –، ﴿وَسَيِّدًا﴾: أي وسيكون يحيى سيدًا في قومه، له المكانة والمنزلة العالية، ﴿وَحَصُورًا﴾: أي لا يأتي الذنوب والشهوات الضارة، ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي الذين بلغوا أعلى درجات الصلاح.

الآية ٤٠: ﴿قَالَ﴾ زكريا – فرِحًا مُتعجبًا –: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ﴾ يعني كيف يكونُ ﴿لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ أي أدركتني الشَّيخوخة وأضعفتني ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ أي عقيم لا تلد، ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ يعني هذا – الذي يَحدث لك – ليس بمُستبعَد على الإله القادر الذي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ من الأفعال الخارقة للعادة.

الآية ٤١: ﴿قَالَ﴾ زكريا: ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أي اجعل لي علامةً على وجود هذا الولد ليَحصل لي السرور والاستبشار، ﴿قَالَ آيَتُكَ﴾ التي طلبتَها هي ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾: يعني إنك لن تستطيع التحدث إلى الناس ثلاثة أيامٍ إلا بالإشارة إليهم، مع أنك سَوِيٌّ صحيح، ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾: أي وفي هذه المدة أكثِرْ مِن ذِكر ربك، ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ أي أواخِر النهار وأوائله.

الآية ٤٢: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ – والمُراد بهذا الاصطفاء أنه سبحانه اختارها لطاعته، وفرَّغَها لعبادتِه (ولذلك خَصَّها بأنواع الهِداية والعِصمة واللُّطف، فقد كفاها أمْرَ عَيْشها، فكانَ رِزقها يأتيها من عند الله)، وأنه تعالى أسْمَعَها كلام الملائكة لها، ولم يَحدث هذا لأنثى غيرها، ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ مِن الكُفر والمَعصية والأخلاق الرذيلة، ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ – والمُراد بهذا النوع من الاصطفاء أنه تعالى وَهَبَ لها عيسى عليه السلام من غير أب، وأنطقَ عيسى حالَ انفصالِهِ منها ليَشهد لها ببراءتها مِن التُّهمة، فبذلك جعلها وابنها آية للعالمين.

الآية ٤٣: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾: أي داوِمي على الطاعة لربك، وقومي في خشوع وتواضع، شكرًا لله على ما أعطاكِ مِن نِعَمِه، ﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، (ويُلاحَظ هنا أنه سبحانه لم يقل: (واركعي مع الراكعات) مع أنها أنثى، وقد قال عنها – أيضًا – في آيةٍ أخرى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾، وذلك لأنه تعالى لَمَّا كان يريد أن يَمدحَ عبدًا من عباده – رجلاً كانَ أو امرأة – كان يَمنحه درجة الرجال، قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾).

الآية ٤٤: ﴿ذَلِكَ﴾ الذي قصَصْناهُ عليك أيها الرسول هو ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ (واعلم أنّ الوحي هو الإعلام الخَفي السريع)، ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾: يعني وما كنتَ معهم حين اختلفوا في كَفالة مريم أيُّهم أحَقُّ بها وأوْلَى، فعملوا القرعة، وألقَوْا أقلامهم التي يَكتبون بها التوراة، فوقع الاختيار على قلم زكريا عليه السلام، ففاز بكفالتها، ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾: يعني وما كنتَ معهم حين وقع بينهم هذا الاختلاف.

الآية ٤٥: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ أي يُبشركِ بمولودٍ يكونُ وجوده بكلمةٍ من الله، وهي كلمة: "كن"، وهذا المولود ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾، وسيَكونُ ﴿وَجِيهًا﴾: أي له الجاه والشرف والقدْر ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عند الله يوم القيامة، (واعلم أن لفظ: (المَسيح) هو لقب من الألقاب المُشَرَّفة كالصِّدِّيق والفاروق، وأصلُهُ بالعِبرانية: (مشيحا)، ومعناه: المبارك).

الآية ٤٦: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾: أي بعد ولادته، ﴿وَكَهْلًا﴾: أي ويُكلمهم أيضاً وهو كَهل، وذلك بعد أن يَنزل من السماء في آخر الزمان ويَقتل الدَّجَّال، (قال الحسين بن الفضل رحمه الله: "وفي هذه الآيةِ نَصٌّ في أنه عليه الصلاة والسلام سيَنزل إلى الأرض)، فقد رُفِعَ عيسى عليه السلام إلى السماء وَعُمْرُهُ ثلاثٌ وثلاثون سنة (أي وهو في شبابه)، ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾: أي وهو مَعدود من أهل الصلاح والفضل في قوله وعمله.

الآية ٤٧: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾؟! ﴿قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي هذا – الذي يحدث لكِ – ليس بمُستبعَد على الإله القادر، الذي يُوجِدُ ما يشاء من العدم، و ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا﴾: أي إذا قدَّرَ أمرًا، وأراد إيجاد شيء: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

♦ ويُلاحَظ هنا أنّ الله تعالى قال في قصة مريم: ﴿كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، لأنّ الأمر كان مُعجزًا وخارقًا للعادة، مِن غير وجود السبب الطبيعي للإنجاب، أمّا في أمْر زكريا عليه السلام فإنه قال: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾، لأنّ الأمر كان طبيعيًّا بين الرجل والمرأة – وكانت أسباب الإنجاب موجودة – ولكنها كانت مُعطَّلَة.

الآية ٤٨: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ﴾: أي ويُعلمه الكتابة، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾: أي وَيُعَلِّمُهُ سُنَن الأنبياء عليهم السلام، والفِقه، والسَّداد في القول والفعل، ﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾.

الآية ٤٩، والآية ٥٠، والآية ٥١: ﴿وَرَسُولًا﴾: أي ويَبعثه رسولاً ﴿إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قائلاً لهم: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ تدلُّ على أنني رسولٌ مِن عند الله، وهي ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ﴾: أي أصنع لكم ﴿مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ﴾ أي مِثل شكل ﴿الطَّيْرِ﴾ ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ﴿وَأُبْرِئُ﴾: أي وبإذن الله تعالى أشفِي ﴿الْأَكْمَهَ﴾ وهو الأعمى، ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ وهو الذي أصابه مَرَضُ البَرَص فتغيَّر لونُ جلده، ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ﴾ على أنني رسولٌ مِن عند الله ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني إن كنتم مُصَدِّقين حُجَجَ اللهِ وآياتِه ومُقرِّين بتوحيده.

♦ وهنا ينبغي أن نعرف الفرق بين المُعجزات وبين ما يُسمونه بـــ (السِّحر والشَّعْوَذَة): وهو أنّ المعجزة التي تحدث على يد النبي فإنه لا يَتباهَى بها، بل يَستدِلُّ بها لتقريب الناس إلى ربهم عَزَّ وجَلَّ، ولِدَعوَتِهم إلى التوحيد الخالص، وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك من أعمال الخير والصلاح، أمَّا التي تحدث على يد الكاهن أو الساحر فإنه يَدعو بها لنفسه وللشياطين، وللشِّرك بالله عَزَّ وجَلَّ، وفِعل المُنكَرات، وأكْل أموال الناس بالباطل.

♦ ثم قال لهم عيسى عليه السلام: ﴿وَمُصَدِّقًا﴾: أي وجئتُكُم مُصَدِّقًا ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ المُنَزَّلة على أخي موسى لأحُثَّكُم على العمل بها، ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ مِن الأطعِمة بسبب ذنوبكم، ثم أعادَ تذكيرهم بالمعجزات مرة أخرى، فقال: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، وذلك ليكون كلامه مُؤثرًا في قلوبهم وطباعهم الغليظة، وليُؤكد أنها مِن عند الله، وليست مِن عند نفسه، فكأنه أراد أن يقول: (وجئتُكم بآيةٍ تدل على أنّ اللهَ هو ربي وربكم، وعلى أني رسولٌ من عنده).

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أبلغُكُم به عن الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾: يعني إنّ الله – الذي أدعوكم إليه – هو وحده ربي وربكم فاعبدوه، فأنا وأنتم سواءٌ في العُبودية والخضوع لله تبارك وتعالى، وإلاَّ، فدَعونا نتسائل: (أين قال عيسى عليه السلام في الإنجيل: (اعبدوني لأنني أنا ربُّكُم)؟! وأين هو – أصلاً – إنجيل عيسى ابن مريم؟! وهل يُعقلُ أن ينزل الإله مِن عَليائِهِ لِيَعيشَ في بطن امرأة، ثم يَخرج منه ليَعيش على الأرض، فيَرضع مِن أمِّهِ، ويحتاجَ إلى الطعام والشراب، وينام، ويحتاجَ إلى قضاءِ حاجته، ويَنشغلَ بأمر نفسه؟! هل هذا إلهٌ يَستحق أن يُعبَد؟!) تعالى اللهُ عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا، ولذلك قال عيسى عليه السلام بعدها: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ يعني: وهذا – أي عبادة اللهِ تبارك وتعالى وحده لا شريك له – هو الطريق الصحيح الذي لا اعْوِجاجَ فيه، وهذا مُطابقٌ تمامًا لِما دعا إليه جميع الأنبياء والرُسُل من توحيد اللهِ تعالى، وإخلاص العبادة له.

****

٤. تفسير الربع الرابع من سورة آل عمران (*)

الآية ٥٢: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ﴾ أي من اليهود ﴿الْكُفْرَ﴾: أي الإصرار على الكفر برسالته: نادَى في أصحابه المخلصين، فـ ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ يعني: مَن يكون معي في نُصرة دين الله؟، ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ وهم أصفياء عيسى ﴿الذين اختارَهم لِصُحبته﴾: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾: أي نحن أنصار دين الله والداعون إليه، ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي وَاشْهَدْ يا عيسى بِأَنّنَا مستسلمون لله تعالى بالتوحيد والطاعة.

♦ وفي هذا دليل على أنّ دينَ الله واحدٌ وهو الإسلام، وذلك على مُختلف الأزمان والعصور، قال تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، ولكنّ الشرائع هي التي اختلفت، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، ثم خُتِمَت بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم التي نَسخت جميع الشرائع المُنزَّلة، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾، ولذلك تَعهَّدَ اللهُ تعالى بِحفظ القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾، أمَّا الكتب السماوية الأخرى فإنّ الله لم يَتعهد بحفظها، ولكنه وَكَلَ حِفظَها إلى الأحبار والرُهبان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾، ولذلك أصابها التحريف.

الآية ٥٣، والآية ٥٤: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ أي عيسى عليه السلام، ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾: أي فاجعلنا في الآخرة مع مَن شَهِدوا لك بالوحدانية ولأنبيائك بالرسالة، وهم أمّة محمد صلى الله عليه وسلم، (الذين يَشهدون للرسل بأنهم قد بلَّغوا أمَمَهم)، فلَمّا قام الحواريون مع عيسى بنُصرة دين الله وإقامة شَرعه، آمنَتْ طائفة مِن بني إسرائيل بعيسى، وكفرتْ طائفة أخرى، فاقتتلت الطائفتان، فلهذا قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا﴾: أي ومَكر الذين كفروا – من بني إسرائيل – بعيسى عليه السلام، بأن وَكَّلوا به مَن يَقتله، ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ بهم، حيثُ ألقى

(*) وهي سلسلة تفسير لآيات القرآن الكريم بأسلوب بسيط جدًّا، وهي مُختصَرة من (كتاب: "التفسير المُيسَّر" (بإشراف التركي)، وأيضًا من "تفسير السّعدي" ، وكذلك من كتاب: " أيسر التفاسير" لأبو بكر الجزائري) (بتصرف)، عِلمًا بأنّ ما تحته خط هو نص الآية الكريمة، وأما الكلام الذي ليس تحته خط فهو التفسير.

– واعلم أن القرآن قد نزلَ مُتحدياً لقومٍ يَعشقون الحَذفَ في كلامهم، ولا يُحبون كثرة الكلام، فجاءهم القرآن بهذا الأسلوب، فكانت الجُملة الواحدة في القرآن تتضمن أكثر مِن مَعنى: (مَعنى واضح، ومعنى يُفهَم من سِيَاق الآية)، وإننا أحياناً نوضح بعض الكلمات التي لم يذكرها الله في كتابه (بَلاغةً)، حتى نفهم لغة القرآن.

شَبَه عيسى على رجلٍ دَلَّهم عليه، فأمسَكوا به، وقتلوه وصلبوه (ظناً منهم أنه عيسى عليه السلام)، ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

♦ وفي هذا إثبات صفة المَكْر لله تعالى على النحو الذي يَليقُ بجلاله وكماله، لأنه مَكْرٌ بحق، وفي مقابلة مَكْر الماكرين، وقد كانَ النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه: (وامكُر لي ولا تمْكُر عليّ) (انظر صحيح الترمذي: 355)، ومِمَّا يَجب أن يُعلَم أنَّ أفعالَ اللهِ تعالى لا تُشبه أفعال العباد، لأنّ ذاتَهُ سبحانه لا تُشبه ذَواتِهم.

الآية ٥٥: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى﴾: أي اذكر – أيها الرسول – مَكْرَ اللهِ بهؤلاء اليهود حين قال لعيسى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾: يعني إني قابضك من الأرض – حَيّاً – مِن غير أن يَنالك سُوء، ومُتمِّم لك ما كُتِبَ لك مِن أيام بقاءك مع قومك، ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ ببدنك وروحك، (واعلم أن بعض المُفسرين قد فسَّروا قوله تعالى لعيسى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾، أنه ألقَى عليه النوم، ثم رفعه إليه، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾، فأطلق سبحانه لفظ الوفاة على النوم، واللهُ أعلم)، ﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾: أي ومُخَلِّصُك ﴿مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾ أي الذين هم على دِينك الحق (مِن توحيد الله تعالى، ومِن البِشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم)، فآمَنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد بعْثَته، والتزموا شريعته، فأولئك سأجعلهم ﴿فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

♦ وبالفعل، فقد أخبر سبحانه – في آيةٍ أخرى – بأنه أيَّدَ المؤمنين منهم على عَدُوِّهم، فأصبحوا ظاهرين عليهم، حتى بَعَثَ اللهُ نَبِيَّهُ محمداً صلى الله عليه وسلم، فكان المسلمون هم المُتبعين لعيسى حَقيقةً، فأيَّدهم اللهُ تعالى ونَصَرَهم على اليهود والنصارى وسائر الكفار، وإنما يَحصل في بعض الأزمان انتصار الكفار على المسلمين، وذلك حِكمةً مِن الله تعالى، وعقوبةً للمسلمين على تَرْكِهم العمل بكتاب ربهم وسُنَّة رسولهم صلى الله عليه وسلم، ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ مِن أمْر عيسى عليه السلام.

♦ واعلم أنّ في قولِهِ تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾: دليلٌ على عُلُوّ اللهِ تعالى واستوائِهِ على عرشهِ حَقيقةً، كما دَلَّت على ذلك النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة، مِن غير تشبيهٍ – لهذا الاستواء – ولا تَكييف (يعني مِن غير أن نقول: كيف استوى على العرش؟)، وسيأتي تفصيل ذلك في مَوضعه بإذن اللهِ تعالى.

الآية ٥٦: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالمَسيح من اليهود، أو غَلَوا فيه من النصارى (أي جاوَزوا الحَدّ في تعظيمه)، ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا﴾ بالقتل والأَسْر وإزالة المُلك، ﴿وَالْآخِرَةِ﴾: أي وأعذبهم في الآخرة بالنار، ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ يَنصروهم ويَدفعون عنهم عذاب الله.

الآية ٥٧: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي يُعطيهم اللهُ ثوابَ أعمالهم – يوم القيامة – كاملاً غير منقوص، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يَظلمون الناس، والذين يَظلمون أنفسهم بالشِرك والكفر والمعاصي، (واعلم أنّ معنى ظُلمهم لأنفسهم أنهم يُعَرِّضونها – بذنوبهم – لغضب اللهِ وعقابه).

الآية ٥٨: ﴿ذَلِكَ﴾ الذي ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾: أي الذي نَقصُّه عليك في شأن عيسى هو ﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾: أي من الدلائل الواضحة على صحة رسالتك، وذلك باعتراف علماء النصارى أنفسِهم، مِثل النَجاشِي (مَلِك الحَبَشة) وَمَن معه، فحِينما تَلا عليهم جعفر بن أبي طالب آياتٍ مِن سورة مريم، حتى وَصَل إلى قول اللهِ تعالى - حِكايةً عن عيسى -: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾، قال النَجاشيُّ لِجعفر: (إنَّ الذي قلتَ – (وهو القرآن) –، والذي قال عيسى – (وهو الإنجيل) – لَيَخرُجُ مِن مِشكاةٍ واحدة) – (وهو اللهُ تبارك وتعالى)، ﴿وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾: أي وهذا الذي نتلوه عليك هو من الدلائل الواضحة على صحة هذا القرآن الحكيم الذي يَفصل بين الحق والباطل.

الآية ٥٩: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾: يعني إنَّ خَلْقَ اللهِ لعيسى مِن غير أب، مَثَلُهُ كَمَثَل خَلْق اللهِ لآدم من غير أب ولا أم، إذ خَلَقَهُ من تراب الأرض ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾ بَشراً ﴿فَيَكُونُ﴾، فدَعوَى ألوهية عيسى لِكَونِهِ خُلِقَ من غير أب دَعوَى باطلة، لأنّ آدم عليه السلام خُلِقَ من غير أب ولا أم، وقد اتفق الجميع على أنه عَبْد من عباد الله، وإلاَّ، فقد كانَ آدمُ هو الأوْلَى بهذا الادِّعاء.

♦ ويُلاحَظ هنا أنّ اللهَ تعالى قال: ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، رَغمَ أنه كانَ مِن المُتوقَّع أن يقول: (خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فكان) أي بصيغة الماضي – اتفاقاً مع سِياق الآية – ولكنه سبحانه أراد أن يُوضح أنّ هذا الأمر – وهو أمْر: (كُن فيكون) – يَتحقق في كل وقتٍ وحِين (في الماضي وفي المُستقبَل)، فكأنه سبحانه أراد أن يقول: (خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فكان، وكذلك يكونُ أيّ شيءٍ يُريده، في أيّ وقتٍ يُريده).

الآية ٦٠: ﴿الْحَقُّ﴾: أي الذي جاءك أيها الرسول في أمر عيسى هو الحقُّ ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾: أي فاستمِرّ على يَقينك، ولا تكن من الشاكِّين، (وفي هذا تثبيتٌ وطَمأنة للرسول صلى الله عليه وسلم وأمّته).

الآية ٦١: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾: أي فمَن جادَلَك – مِن النصارى - في أمر عيسى ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ ﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾، فنجتمعُ جميعاً في مكانٍ واحد، ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾: أي ثم نتجه إلى الله بالدعاء أن يُنزل عقوبته ولَعْنته على الكاذبين مِنّا، المُصِرِّين على عِنادهم، فيَهلَكوا على الفور، وبالفِعل، فقد خرج الرسول صلى الله عليه وسلم في الغَد، ومعه الحسن والحسين وفاطمة (رضي الله عنهم)، إلاَّ إنّ علماء نصارى نَجران – الذين جاءوا يُجادلونه في أمر عِيسى – هَربوا من هذه المُلاعَنة، لأنهم عرفوا الحق، وخافوا إن دَعَوا باللعنة على الكاذبينَ أن يَهلكوا، فدعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فرفضوا، ورَضوا بالكفر (إبقاءً على مَناصبهم)، ورضوا بالمُصالحة، والتزموا بأداء الجِزيَة للمسلمين، (ففي هروب علماء نصارَى نجران مِن المُلاعَنة: دليلٌ قاطع على أنّ محمداً هو رسول الله، وأنَّ دِينَهُ هو الدين الحق، وما سواهُ باطل).

الآية ٦٢: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ يعني: وما مِن مَعبودٍ يَستحق العبادة إلا اللهُ وحده، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

الآية ٦٣: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾: أي فإن أعرَضوا عن تصديقك واتِّباعك فهُم المفسدون، واللهُ عليمٌ بهم، وسيُجازيهم على ذلك.

الآية ٦٤: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ أي يا أهل التوراة والإنجيل ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾: أي إلى كلمةِ عدلٍ وحَقٍّ نلتزم بها جميعًا، وهي ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ يعني ولا نَتخذ أيَّ شريك معه – مِن صَنَمٍ أو بَشَرٍ أو صليب أو غير ذلك – ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: أي ولا يَدِينُ بعضُنا لبعضٍ بالطاعة مِن دون الله، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: فإن أعرَضوا ﴿فَقُولُوا﴾ لهم: ﴿اشْهَدُوا﴾ علينا ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾: أي منقادون لربنا وحده بالعبودية والإخلاص.

الآية ٦٥: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ﴾ أي لماذا تجادلون ﴿فِي﴾ أمْر ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ بأن يَدَّعِي كلُ فريقٍ منكم أنه كان على مِلَّتِه ﴿وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾: أي وقد عَلِمتم أنّ اليهودية والنَصرانية كانتا بعد وفاته بزمن؟ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟

الآية ٦٦: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ – أي يا هؤلاء – ﴿حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾: أي جادلتم رسولَ الله محمدًا صلى الله عليه وسلم فيما تعتقدونه حقاً – مِن أمْر عيسى عليه السلام – وهو باطل (لأنه بَشَر وليس إله)، ﴿فَلِمَ

تُحَاجُّونَ﴾: أي فلماذا تجادلونه ﴿فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ مِن أمْر إبراهيم عليه السلام؟ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

الآية ٦٧: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ ﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن أيّ دين باطل، فكان عليه السلام ﴿مُسْلِمًا﴾: أي مُستسلمًا لربه، خاضعاً لأمْرِهِ وطاعته، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

الآية ٦٨: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ أي لَهُمُ الذين اتَّبعوه على التوحيد مِن أمَّته وآمَنوا برسالته، ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ﴾: أي وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بِهِ هم أحَقّ الناس بإبراهيم، وأوْلَى بِهِ مِن غيرهم، لأنهم هم الذين اتَّبعوه على دينه (وهو توحيد الله تعالى والإسلام له)، وأمَّا مَن تَرَكَ مِلَّتَهُ وراءَ ظهره (كاليهود والنصارى والمشركين) فلَيسوا من إبراهيم، وهو ليس منهم، ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ناصرهم ومُعِينهم على أعدائهم.

♦ واعلم أنَّ اللام التي في قوله تعالى: ﴿لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ تُسَمَّى: (لام التوكيد)، واعلم أيضاً أن هذه الآيات قد اشتملت على النَهي عن الجدال بغير علم.

الآية ٦٩: ﴿وَدَّتْ﴾ أي تَمَنَّتْ ﴿طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ عن الإسلام، ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ وأتْباعهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك لفساد قلوبهم.

الآية ٧٠: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: أي لماذا تجحدون بآياتِ اللَّهِ التي أنزلها في كتبكم، وفيها أن محمدًا صلى الله عليه وسلم هو الرسول المُنتظَر، وأنَّ ما جاءكم به هو الحق، ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ بذلك في أنفسكم، ولكنكم تُنكرونه أمام الناس.

الآية ٧١: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ يعني لماذا تَخلِطون الحقَّ الذي بَيَّنتُهُ لكم بالباطل الذي حَرَّفتمُوهُ وكَتبتمُوهُ بأيديكم، ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ أي ولماذا تُخْفون الحق الصريح مِن صفة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنها موجودة في الكتب التي بأيدِيكم.

الآية ٧٢، والآية ٧٣: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا﴾: أي أظهروا الإيمان (نفاقاً) ﴿بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ﴾: أي أول النهار، ﴿وَاكْفُرُوا﴾ به ﴿آخِرَهُ﴾: أي آخر النهار ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: أي لعلهم يتشكَّكون في دينهم فيَرجعوا عنه، ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾: أي ولا تُصدِّقوا تصديقًا صحيحًا إلا

لَمن آمَنَ بدينكم، ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى﴾ والتوفيق هو ﴿هُدَى اللَّهِ﴾ وتوفيقه للإيمان الصحيح، وقالوا أيضاً: لا تُظهِروا ما عندكم من العلم للمسلمين ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾: أي حتى لا يَتعلموا منكم فيُساوُوكم في العلم، ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾: يعني أو يَتخذوا هذا العلم – الذي عندكم – حُجَّةً عليكم عند ربكم، فيَغلبونكم بها، ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ يَسَعُ بعِلمه وعطائه جميع مخلوقاته، ﴿عَلِيمٌ﴾ بمَن يستحق فضله ونعَمَه.

♦ واعلم أنّ هذه الجُملة: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾، هي مَعطوفة على قولهم في أول الآية: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، فكأنهم قالوا: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ، ولا تُظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين، حتى لا يُؤْتَوا مِن العِلم مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ بهذا العلم عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾، وبهذا تكون الجُملة: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾، هي جملة اعتراضية بين الجملتين، للتأكيد على أن التوفيق للهُدى إنما هو بيد الله تعالى وحده.

الآية ٧٤: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾ أي بالنُبوَّة والهِداية إلى أكْمَل الشرائع ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ مِن خَلقه ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

****

٥. تفسير الربع الخامس من سورة آل عمران (*)

الآية ٧٥ ، والآية ٧٦: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ﴾ أي تأمَنْهُ على مالٍ كثير، فـ ﴿يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ مِن غير خيانة، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ﴾ واحد، فـ ﴿لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ يعني إلا إذا بذلتَ غاية الجهد في مُطالبته، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾: أي بسبب أنهم ﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾: أي ليس علينا في أكل أموال العرب إثمٌ ولا مؤاخذة، لأنّ الله قد أحلَّها لنا، وهذا كَذِبٌ على الله تعالى، ولذلك قال سبحانه بعدها: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون، ﴿بَلَى﴾: أي ليس الأمر كما زعم هؤلاء الكاذبون، فإنّ المُتَّقِي حقاً هو ﴿مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ﴾ الذي عاهدَ اللهَ عليه مِن أداء الأمانة، ومِن الإيمان به وبرسله ﴿وَاتَّقَى﴾ اللهَ عَزَّ وَجَلّ، فامتثلَ أمْره واجتنب نَهْيَه، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

الآية ٧٧: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ﴾: أي يَستبدلون بعهد الله لهم – في كُتُبهم –، وكذلك يَستبدلون بحَلِفِهم بالله تعالى ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: أي عَرَضاً زائلاً مِن الدنيا، فـ ﴿أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ﴾: أي لا نصيبَ لهم ﴿فِي﴾ نعيم الدار ﴿الْآخِرَةِ﴾، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ يوم القيامة غضباً عليهم (لتقديمهم هَوَى أنفسِهم على رضا ربهم)، ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بعَين الرحمة، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾: أي ولا يُطهِّرُهم مِن دَنَس ذنوبهم وكُفرهم، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في نار جهنم.

♦ ولذلك يَجب ألاَّ يَطمئن المسلمون إلى اليهود أبداً، وألاَّ يَثقوا فيهم - حتى ولو حلفوا لهم –، وذلك لِمَا عُرِفوا بهِ من الغدر والخيانة، (واعلم أنه يدخل أيضاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: ما يُلزِمُ به الرجل نفسه مِن عبادةٍ وغير ذلك، لأنّ كل ذلك مِن عهْد الله الذي يَجب الوفاء به).

الآية ٧٨: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾ - أي مِن أهل الكتاب - ﴿لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ﴾ أي يُحَرِّفون الكلام – الذي في كُتُبهم – عن معناه الحقيقي، وكذلك يُحَرِّفون ألفاظه، بل ويَزيدون فيه مِن كلامهم، ثم يُمِيلون ويَعْوجُون ألسنتهم بهذا الكلام الذي أضافوه، وذلك ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾: أي ليُوهِموكم أنّ هذا من الكتاب، ﴿وَمَا هُوَ

(*) وهي سلسلة تفسير لآيات القرآن الكريم بأسلوب بسيط جدًّا، وهي مُختصَرة من (كتاب: "التفسير المُيَسَّر" (بإشراف التركي)، وأيضًا من "تفسير السّعدي" ، وكذلك من كتاب: " أيسر التفاسير" لأبو بكر الجزائري) (بتصرف)، عِلمًا بأنّ ما تحته خط هو نص الآية الكريمة، وأما الكلام الذي ليس تحته خط فهو التفسير.

– واعلم أن القرآن قد نزلَ مُتحدياً لقومٍ يَعشقون الحَذفَ في كلامهم، ولا يُحبون كثرة الكلام، فجاءهم القرآن بهذا الأسلوب، فكانت الجُملة الواحدة في القرآن تتضمن أكثر مِن مَعنى: (مَعنى واضح، ومعنى يُفهَم من سِيَاق الآية)، وإننا أحياناً نوضح بعض الكلمات التي لم يذكرها الله في كتابه (بَلاغةً)، حتى نفهم لغة القرآن.

مِنَ الْكِتَابِ﴾ ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، وهُم مِن أجْل دُنياهم: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: أي يَكذبونَ على اللهِ تعالى – مع عِلمهم أنهم كاذبون – وهذا أعظم عقوبةً مِمَّن يقولُ على اللهِ بغير علم.

الآية ٧٩، والآية ٨٠: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ﴾: أي مَا كَانَ لِبَشَرٍ أن يُنَزِّل اللهُ عليه كتابه، ﴿وَالْحُكْمَ﴾: أي ويَجعله حَكمًا بين خلقه، ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾: أي ويُعطيه النُبُوَّة ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾! فهذا يَستحيل أن يَصدر مِن أحدٍ أنعم اللهُ عليه بالنُبُوَّة (سواء كانَ عيسى عليه السلام أو غيره)، ﴿وَلَكِنْ﴾ يقولُ لهم: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾: أي كونوا حُكماء فقهاء علماء بسبب تَعليمكم الكتابَ للناس، وهذا التعليم يَتطلَّب أن تكونوا أنتم قدوة للناس (عِلماً وعَملاً)، ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾: أي وبما تدرسونه من الكتاب حِفظًا وعِلمًا وفِقهًا، ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ هذا النبي ﴿أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ أي آلهة تَعبدونهم مِن دون اللهِ تعالى، ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ يعني: أيُعْقَلُ – أيها الناس – أن يأمركم بالكفر باللهِ تعالى، بعد أن أمَركم أن تنقادوا له؟!، وبعد أن كنتم على فِطرَتِكم الأولى ﴿وهي التوحيد﴾؟!، وبعد تعاليم الرُسل التي قبله بتوحيد اللهِ تعالى وإخلاص العبادة له؟! هذا لا يُعقَلُ أبداً، ولا يكونُ بأيّ حال.

الآية ٨١: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾: أي واذكر – أيها الرسول – حين أخذ اللهُ العهد المُؤكَّد على جميع الأنبياء، فقال لهم: ﴿لَمَا آتَيْتُكُمْ﴾: أي لَئِنْ أعطيتكم ﴿مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ مِن عندي ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ ﴿قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾: أي فهل أقررتم واعترفتم بذلك، وأخذتم عليه عهدي المُوَثق؟ ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾ ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا﴾: أي فليشهدْ بعضكم على بعض، واشهدوا على أمَمِكم بذلك، ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ عليكم وعليهم (وفي هذا دليل على أنّ اللهَ تعالى قد أخذ العهد على كل نبي أن يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأخذ العهد أيضاً على أُمَم الأنبياء بذلك).

الآية ٨٢: ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي فمَن أعرض عن الإسلام بعد هذا العهد الذي أخذه اللهُ عليهم ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

الآية ٨٣: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ يعني: هل يريدون ديناً غير الإسلام؟ ﴿وَلَهُ﴾: أي ولله تعالى قد ﴿أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا﴾ أي طائعينَ لأمْر اللهِ تعالى (كالمؤمنين)، ﴿وَكَرْهًا﴾: أي رغمًا عنهم عند الشدائد، حِينَ لا يَنفعهم ذلك (وهم الكفار) مِثل إسلام فرعون عند موته، ﴿وَإِلَيْهِ﴾ أي وإلى اللهِ وحده ﴿يُرْجَعُونَ﴾ جميعاً

(مؤمنهم وكافرهم)، فيُجازي كُلاً بعمله، وفي هذا تحذيرٌ مِن اللهِ تعالى لخلقه أن يَرجع إليه أحدٌ منهم على غير مِلَّة الإسلام.

الآية ٨٤: ﴿قُلْ﴾ لهم أيها الرسول: ﴿آمَنَّا بِاللهِ﴾: أي صدَّقْنا باللهِ الواحد الأحد وأطَعْناه، فلا رَبَّ لنا غيره، ولا مَعبودَ لنا سواه، ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ أي وآمنَّا بما أُنزلَ علينا من القرآن، ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾: أي وبما أُنزلَ على إبراهيمَ ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأسباط﴾ – والأسباط هم الأنبياء مِن وَلَدِ يعقوب (الذين كانوا في قبائل بَني إسرائيل الاثني عشرة) – ﴿وَمَا أُوتِيَ﴾ أي وآمنَّا بما أُوتيَ ﴿مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ في الإيمان بهم ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي مُنقادونَ له تعالى بالطاعة والعبادة.

الآية ٨٥: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾: أي ومَن يَطلب دِينًا غير دين الإسلام (الذي هو الاستسلام لله تعالى، والانقياد له بالطاعة والعبودية، والإيمان برسوله الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم واتِّباعِهِ ومَحبته)، ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ذلك الدين الباطل الذي اختاره، ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ لأنه قد استبدل النعيم المقيم بالعذاب الأليم.

الآية ٨٦: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ يعني: كيف يُوَفِّق اللهُ – للإيمان به وبرسوله – قومًا جَحدوا نُبُوَّة محمد صلى الله عليه وسلم بعد إيمانهم به، ﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾: أي وبعد أن شهدوا أنّ محمدًا صلى الله عليه وسلم حق، وأنّ ما جاء به هو الحق، ﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾: أي وبعد ما جاءهم الحُجَج والدلائل من عند اللهِ بِصِحَّة ذلك، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

الآية ٨٧، والآية ٨٨، والآية ٨٩: ﴿أُولَئِكَ﴾ الظالمون ﴿جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ﴾ أي يَطردهم سبحانه مِن رحمته، ﴿وَالْمَلَائِكَةِ﴾: أي وتدعو عليهم الملائكة باللعنة، ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾: أي والناسُ جميعاً يَلعنونهم، حتى الكُفار، فإنهم يَلعنونهم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: أي دائمين في اللعنة والنار، ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾: أي لا يُرفَع عنهم العذاب قليلاً ليستريحوا، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾: أي ولا هم يُمهَلون بمَعذرةٍ يَعتذرون بها ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ أي رَجَعوا إلى ربهم بالتوبة النصوح، نادمينَ مُستغفرينَ من خَطاياهم، ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾: أي مِن بعد كُفرهم وظُلمهم وكِتمانهم للحق، ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أفسدوه، وأظهَروا ما كتموه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي فإنَّ اللهَ يَقبلُ توبتهم ويُجازيهم بالمغفرة، فهو سبحانه الغفور لذنوب عباده التائبين، الرحيم بهم إذ وَفقهم للتوبة وقَبِلَها منهم.

الآية ٩٠: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾: أي استمروا على كُفرهم حتى الممات، فأولئك ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ عند حضور الموت، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾.

الآية ٩١: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي جَحَدوا نُبُوَّة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ﴾ يوم القيامة ﴿مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ لِيَفتدي به مِن عذاب الله تعالى ﴿وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾ فِعْلا، ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ يُنقِذونهم مِن عذاب الله.

الآية ٩٢: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ﴾: أي لن تبلغوا درجة البر (الذي هو كمال الخير، والذي يُوصِلُ صاحبَه إلى الجنة)، قال النبي صلى الله عليه وسلم – كما في الصحيحيْن – : (وإنّ البر يَهدي إلى الجنة)، فلن تَبلغوا درجة الأبرار ﴿حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي حتى تنفقوا من الأشياء التي تحبها نفوسكم (سواء كانَ مالاً أو طعاماً أو غير ذلك) (لأنكم إذا قدَّمتم مَحبة الله تعالى على ما تحبه أنفسكم: دَلَّ ذلك على إيمانكم الصادق)، واعلم أنه يَدخل في ذلك أيضاً: الإنفاق عند حاجة المُنفِق إلى ما أنفقه)، ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾، وسيُجازيكم بِهِ أوْفَر الجزاء.

****

٦. تفسير الربع السادس من سورة آل عمران (*)

الآية ٩٣، والآية ٩٤: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا﴾: أي حَلالاً ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾: يعني إلا مَا حَرَّمَ يعقوب عَلَى نَفْسِهِ لِمرضٍ نَزل به، وذلك ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾، فلما نزلتْ التوراة، حَرَّم اللهُ فيها – على بني إسرائيل – بعض الأطعمة التي كانت حلالاً لهم، وذلك بسبب ذنوبهم وظُلمهم، ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دَعواكم الكاذبة (مِن أنّ اللهَ هو الذي حَرَّمَ على يعقوب هذه الأطعمة، وأنه أنزل في التوراة هذا التحريم على يعقوب)، وذلك حتى تعلموا صِدْقَ ما جاء في القرآن مِن أنّ اللهَ لم يُحَرِّم على بني إسرائيل شيئًا قبل نزول التوراة، لا على يعقوب ولا على غيره، إلا ما حرَّمه يعقوب على نفسه، ﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾: أي فمَن كذبَ على اللهِ بعدَ قراءة التوراة ووضوح الحقيقة: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

الآية ٩٥: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾: أي فإن كنتم صادقين في مَحبتكم وانتسابكم لإبراهيم عليه السلام، فاتَّبعوا مِلَّتَهُ التي شرعها اللهُ على لسان محمد صلى الله عليه وسلم، فإنها الحق الذي لا شك فيه، وقد كانَ إبراهيم عليه السلام ﴿حَنِيفًا﴾: أي مائلاً عن أي دينٍ باطل، فكانَ عليه السلام مُسلِماً لله تعالى ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

الآية ٩٦: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ أي بُنِيَ لعبادة اللهِ في الأرض: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾: أي لَهُوَ بَيتُ الله الحرام الذي بمكة، ﴿مُبَارَكًا﴾: أي وهذا البيت مُبارك تتضاعف فيه الحسنات، وتنزل فيه الرحمات ﴿وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾: أي (وفي استقباله في الصلاة، وكذلك في قصْدِهِ لأداء الحج والعمرة): صلاحٌ وهِداية للناس أجمعين.

الآية ٩٧: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: في هذا البيت دلالاتٌ ظاهراتٌ على أنه مِن بناء إبراهيم عليه السلام، فمِن هذه الدلالات: (مَقامُ إبراهيم)، وهو الحَجَر الذي كان يَقف عليه حين كان يَرفع القواعد مِن البيت، ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ﴾: أي ومَن دخل المسجد الحرام: ﴿كَانَ آمِنًا﴾: أي كان حقاً عليكم أن تؤَمِّنُوه، فلا يَحِلّ أن يَناله

(*) وهي سلسلة تفسير لآيات القرآن الكريم بأسلوب بسيط جدًّا، وهي مُختصَرة من (كتاب: "التفسير المُيَسَّر" (بإشراف التركي)، وأيضًا من "تفسير السّعدي" ، وكذلك من كتاب: " أيسر التفاسير" لأبو بكر الجزائري) (بتصرف)، عِلمًا بأنّ ما تحته خط هو نص الآية الكريمة، وأما الكلام الذي ليس تحته خط فهو التفسير.

– واعلم أن القرآن قد نزلَ مُتحدياً لقومٍ يَعشقون الحَذفَ في كلامهم، ولا يُحبون كثرة الكلام، فجاءهم القرآن بهذا الأسلوب، فكانت الجُملة الواحدة في القرآن تتضمن أكثر مِن مَعنى: (مَعنى واضح، ومعنى يُفهَم من سِيَاق الآية)، وإننا أحياناً نوضح بعض الكلمات التي لم يذكرها الله في كتابه (بَلاغةً)، حتى نفهم لغة القرآن.

أحدٌ بسُوء، ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾: أي وقد أوْجَبَ اللهُ قَصْدَ هذا البيت على المستطيع (بمالِهِ وبَدَنه) لأداء مناسك الحج، ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾: أي ومَن جَحَدَ فريضة الحج فقد كَفر، ومَن كفر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عنه وعن حجِّه و ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

الآية ٩٨: ﴿قُلْ﴾ أيها الرسول – لأهل الكتاب من اليهود والنصارى –: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: يعني لماذا تجحدون الدلائل والبراهين التي في كُتُبِكم، والتي دَلَّتْ على أنّ محمداً هو رسول الله؟، ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ (وفي ذلك تهديدٌ ووعيدٌ لهم).

الآية ٩٩: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ﴾: أي لماذا تَصُدّون مَن أراد الدخول في سبيل الله ﴿وهو دين الإسلام﴾، و ﴿تَبْغُونَهَا﴾ له ﴿عِوَجًا﴾: أي وتريدون له زَيغًا ومَيلاً عن الاستقامة والهدى، وذلك بتشكيكه وتضليله حتى يَضِلّ، ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾: أي وأنتم تعلمون أن ما جئتُ به هو الحق؟، ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

♦ واعلم أنّ الهاء التي في كلمة: ﴿تبغونها﴾ عائدة على (سبيل الله)، لأنّ كلمة: (السبيل) تؤنَّث وتُذكَّر، وبذلك يكون المعنى: (وتَبغون العِوَجَ لِسالِكِها) أي سالِك سبيل الله.

الآية ١٠٠: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ أي يُضِلُّوكم، ويُلقوا إليكم الشُبُهات في دينكم، لترجعوا جاحدين للحق بعد أن كنتم مؤمنين به، فلا تأمَنوهم على دينكم، ولا تَقبلوا لهم رأيًا أو مَشورة.

الآية ١٠١: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ – أيها المؤمنون – ﴿وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم يُبَلِّغها لكم؟ ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ﴾ مِن شر النفس والشيطان، ويَستمسك بالقرآن والسُنَّة: ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: أي فقد وَفَّقَهُ اللهُ لطريقٍ واضح، ومِنهاجٍ مستقيم.

الآية ١٠٢، والآية ١٠٣: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾، وذلك بأن يُطاعَ فلا يُعصَى، وبأن يُشكَرَ فلا يُكفَر، وبأن يُذكَرَ فلا يُنسَى، ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾: أي وداوِموا على تَمسُّكِكُم بإسلامكم إلى آخر حياتكم لِتَلقوا اللهَ وأنتم عليه ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾: أي وتَمَسَّكوا – جميعًا – بكتاب ربكم وهَدْي نبيكم، ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾: أي ولا تفعلوا ما يُؤدي إلى فُرقَتِكم، ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ أي جَمَعَ بين قلوب الأنصار بعد أن كانت متنافرة، يُعادي بعضهم بعضاً وتقوم بينهم الحروب لأتفه

الأسباب، ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ﴾: أي بفضله ﴿إِخْوَانًا﴾، ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ أي على حافة نار جهنم، ﴿فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ بأنْ هَداكم للإسلام، ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾: أي وكما وَضَّحَ اللهُ لكم مَعالم الإيمان الصحيح، فكذلك يُوَضِّح لكم آياته ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى كل ما فيه صلاح دينكم ودُنياكم.

الآية ١٠٤، والآية ١٠٥، والآية ١٠٦: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ أي جماعة ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو كل ما عُرِفَ حُسْنُهُ (شرعًا وعُرفاً بين الناس)، وذلك بالحكمة والموعظة الحسنة، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو ما عُرِف قُبْحُهُ (شرعًا وعُرفاً بين الناس)، بشرط ألاَّ يتسبب النهي عن المُنكَر في حدوث مُنكَر أكبر منه، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي الفائزون بجنات النعيم، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ شِيَعًا وأحزابًا، ﴿وَاخْتَلَفُوا﴾ في أصول دينهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾: أي مِن بعد أن اتَّضَح لهم الحق، ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ – وهي وجوه أهل السعادة، الذين آمنوا بالله ورسوله، وامتثلوا أمْرَه –، ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ – وهي وجوه أهل الشقاء، الذين عَصَوا أوامِرَ اللهِ وكَذَّبوا رُسُلَه –، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فيُقالُ لهم توبيخًا: ﴿أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ – واخترتم الكفر على الإيمان؟ – ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

♦ واعلم أنّ كلمة: (البيّنات) ليست مُؤنّثاً حقيقياً، بمعنى أنه يَجوز تذكيرها ويَجوز تأنيثها، فيَجوز أن تأتي مع الفِعل المُذكَّر: (جاءهم)، كما يَجوز أن تأتي مع الفِعل المُؤنَّث: (جاءتهم)، ولذلك نجد أنّ اللهَ تعالى أحياناً يقول: ﴿جاءهم البيّنات﴾، وأحياناً يقول: ﴿جاءتهم البيّنات﴾، واعلم أنّ الفرق بين المُؤنَّث الحقيقي والمُؤنَّث المَجازي: أنّ المُؤنَّث الحقيقي هو كل ما يَبيض أو يَلد من الإنسان والحيوان والطيور، وأمَّا المُؤنَّث المَجازي فهي كلمات استُعمِلتْ بصيغة المُؤنَّث، رغم أنها مِمَّا لا يَبيض ولا يَلد، مثل: (شجرة، كلمة، شمس، يد، طريق، تفاحة، صيحة، وغير ذلك).

الآية ١٠٧: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ﴾: أي فأولئك في جَنَّة الله ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

الآية ١٠٨: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالصِدق واليقين، ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾: يعني وما اللهُ بظالمٍ أحدًا مِن خَلقِه، ولا بمُنقِصهم شيئًا من أعمالهم.

الآية ١٠٩: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مُلكاً وتدبيرًا وتصَرُّفاً وإحاطة، ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي وإلى اللهِ وحده يَرجع مَصير الخلائق يوم القيامة، فيُجازي كُلاًّ بما عمل.

الآية ١١٠، والآية ١١١: ﴿كُنْتُمْ﴾: أي كَتَبَ اللهُ أنكم ستكونونَ ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾: أي خُلِقَت لِنفع النَّاسِ، وذلك لأنكم ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ إيماناً صادقاً يُؤيِّدُهُ العمل، ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم وما جاءهم به مِن عندِ الله ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ في الدنيا والآخرة، ﴿مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ برسالة محمد صلى الله عليه وسلم العاملون بها (وهم قليل)، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن دين الله وطاعته، وهؤلاء ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ يعني إلا ما يُؤذي أسماعكم من ألفاظ الشرك والكفر وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾، ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾: أي يُعطونكم ظهورهم فِراراً منكم، ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ عليكم.

الآية ١١٢: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾: أي أحاطت بهم ﴿الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾: أي فهم أذِلاَّءُ مُحتقَرون أينما وُجدوا، فلا يكون اليهود إلا تحت أحكام المسلمين، أو تحت أحكام النَصارَى، ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ﴾: يعني إلا بعد أن يُوفوا بعهد اللهِ الذي أخذه عليهم مِن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم متى بُعِث، والدخول في الإسلام، فبذلك يَزول ذلك الذل عنهم، ﴿وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾: يعني أو بعهدٍ من الناس يَأمَنون به على أنفسهم وأموالهم، كحماية دولة قوية لهم، أو مُعاهَدةٍ يفعلونها، أو غير ذلك.

﴿وَبَاءُوا﴾: أي رجعوا ﴿بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ مُستحقين له، ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾: وهي فقر النفوس، فلا ترى اليهوديَّ إلا وعليه الخوف والرعب مِن أهل الإيمان، ﴿ذَلِكَ﴾ الذي جعله اللهُ عليهم، ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي ظلمًا واعتداءً، ﴿ذَلِكَ﴾: أي الجُرأة على قتل الأنبياء كانت ﴿بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾: أي بسبب ارتكابهم للمعاصي، وتجاوُزِهم لحدود اللهِ تعالى، فقسَتْ قلوبهم.

الآية ١١٣: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾: أي ليس أهل الكتاب متساوين، فإنَّ ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾: أي مستقيمة على أمر اللهِ تعالى، مؤمنة برسوله محمد صلى الله عليه وسلم، و ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾: أي وهم يقومون الليل مُرَتِّلينَ آيات القرآن الكريم، (وغالباً يَكتُمُ هؤلاء إيمانهم، خوفاً من بطش أعدائهم)، ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾: أي وهم خاضعون لله، ذليلون له، مُقبلون على مُناجاتِهِ في صلواتهم.

الآية ١١٤: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إيماناً صحيحاً كما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ ﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين لهم الدرجات العالية في الجنة.

الآية ١١٥: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾: أي فلن يَضِيعَ ثوابه عند الله، بل يُشكَرُ لهم، ويُجازونَ عليه، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾.

****

٧. تفسير الربع السابع من سورة آل عمران (*)

الآية ١١٦: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي لن تدفع عنهم مِن عذاب الله شيئًا إن وقع بهم في الدنيا، ولن تدفعه عنهم في الآخرة، ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

الآية ١١٧: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ﴾: أي مَثَلُ ما يُنفق الكافرون في وجوه الخير ﴿فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ أي فيها بَرْدٌ شديد فـ ﴿أَصَابَتْ﴾ هذه الريح الباردة ﴿حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾: يعني إنها هَبَّتْ على زرع قومٍ كانوا يَرجون خيره، ولكنْ بسبب ذنوبهم لم تُبْقِ الريح منه شيئًا، (وكذلك هؤلاء الكافرون لا يجدون في الآخرة ثوابًا، ولكن يُعَجِّلُ اللهُ ثوابهم في الدنيا، حتى لا يَجعل لهم نصيباً في الآخرة)، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

الآية ١١٨: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً﴾ كافرة، (والمقصود ألاَّ تتخذوا الكافرين أولياء) ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾: أي مِن غير المؤمنين، ولا تُطْلِعوهم على أسراركم، لأنهم ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾: أي لا يُقَصِّرونَ جهداً في إفساد حالكم، و ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾: أي وهم يفرحون بعَنَتِكم (أي بما يصيبكم مِن ضرر ومكروه)، ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾: أي وقد ظهرت شدة البُغض في كلامهم، ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ مما يظهرونه لكم من الكراهية، ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ المُتَضَمِّنة لبيان أعدائكم وأحوالهم وصفاتهم لتعتبروا ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لأنّ العاقل هو الذي يُفرِّق بين الصَديق والعدو.

الآية ١١٩، والآية ١٢٠: ﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ يعني: ها هو الدليل على أنكم مُخطِئون في مَحبتكم لهم، فأنتم تحبونهم وتحسنون إليهم، وهم لا يُحبونكم، ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾: أي وأنتم تؤمنون بالكتب المُنَزَّلة كلها ومنها كتابهم، وهم لا يؤمنون بكتابكم، فكيف تحبونهم؟، ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ أي انفردوا ببعضهم: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾: أي ظهر عليهم الغم والحزن، فعَضُّوا أطراف

(*) وهي سلسلة تفسير لآيات القرآن الكريم بأسلوب بسيط جدًّا، وهي مُختصَرة من (كتاب: "التفسير المُيسَّر" (بإشراف التركي)، وأيضًا من "تفسير السّعدي" ، وكذلك من كتاب: " أيسر التفاسير" لأبو بكر الجزائري) (بتصرف)، عِلمًا بأنّ ما تحته خط هو نص الآية الكريمة، وأما الكلام الذي ليس تحته خط فهو التفسير.

– واعلم أن القرآن قد نزلَ مُتحدياً لقومٍ يَعشقون الحَذفَ في كلامهم، ولا يُحبون كثرة الكلام، فجاءهم القرآن بهذا الأسلوب، فكانت الجُملة الواحدة في القرآن تتضمن أكثر مِن مَعنى: (مَعنى واضح، ومعنى يُفهَم من سِيَاق الآية)، وإننا أحياناً نوضح بعض الكلمات التي لم يذكرها الله في كتابه (بَلاغةً)، حتى نفهم لغة القرآن.

أصابعهم من شدة الغضب، لِمَا يَرونه مِن أُلْفة المسلمين واجتماع كلمتهم، وعزة الإسلام وإذلالهم به، ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

- ومِن عداوتهم لكم أيها المؤمنون أنكم ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾: يعني إنْ نَزَلَ بكم أمْرٌ حَسَنٌ - مِن نَصْرٍ وغنيمة - ظهرتْ عليهم الكآبة والحزن ﴿وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾: يعني وإنْ وقع بكم مَكْروهٌ - مِن هزيمةٍ أو نقصٍ في الأموال والأنفس والثمرات - فرحوا بذلك، ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا﴾ أيها المؤمنون على ما أصابكم، ﴿وَتَتَّقُوا﴾ اللهَ فيما أمَركم به ونهاكم عنه، ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ - من الفساد والمَكر - ﴿مُحِيطٌ﴾ وسيُجازيهم على ذلك.

الآية ١٢١: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾: أي واذكر - أيها الرسول - حين خَرَجْتَ مِن بيتك في الصباح، لابسًا عُدَّة الحرب، و ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾: أي وتنظم صفوف أصحابك، وتُنْزِل كل واحد منهم مكانه في الصف للقاء المشركين في غزوة "أُحُد"، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالكم.

الآية ١٢٢: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ﴾ - وهُم بنو سلمة وبنو حارثة - ﴿أَنْ تَفْشَلَا﴾: أي فقد حَدَّثتهم أنفسهم بأن يَجْبنوا، ويَهربوا من القتال، ويرجعوا مع زعيمهم المنافق (عبد الله بن أُبَيٍّ) خوفًا من لقاء العدو، ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾: أي ولكنَّ اللهَ عَصَمَهُم وحَفظهم وثَبَّتَهم، فساروا معك متوكلين على الله، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

♦ واعلم أن التوكل على الله: هو الأخذ بالأسباب - تعبُّداً لله تعالى - لأنه هو الذي أمرنا بذلك، ولكنْ مع الاعتماد على اللهِ وحده، ومع الاعتقاد الجازم بأنّ كل شيء بيده سبحانه وتعالى، فلا يُعَلِّقُ العبد قلبه بالأسباب أبداً، وإلاَّ، فإنَّ هناك مَن أخذ بنفس الأسباب ورغم ذلك فشل في قضاء حوائجه، فالتوفيق كله بيد الله تعالى، فهو سبحانه الذي يُيَسِّرُ لعبده الأمور، وهو الذي يُلهمه أسباب الرشاد، ويُسَخِّر له مَن يُرشده للصواب، ويُهيئ له الأسباب الصالحة والأوقات المناسبة لقضاء حاجاته ومصالحه، وهو الذي يُسَخِّر قلوب العباد لخدمة المتوكلين عليه، إذ إنَّ قلوب العباد بين يديه سبحانه، قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنّ قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلبٍ واحد، يُصَرِّفه حيث شاء) (والحديث في صحيح الجامع برقم: ٢١٤١)، فهو سبحانه المتصرف في الأمور كلها، قال تعالى - في شأن العبد التَقِيّ - : ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾، وقال أيضاً - في شأن العبد الشَقِيّ - : ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾.

الآية ١٢٣: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أي وأنتم ضعفاء، قليلوا العَدَد والسلاح، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

الآية ١٢٤، والآية ١٢٥: ﴿إِذْ﴾: أي اذكر – أيها الرسول – ما حدث في بدر حينَ ﴿تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ - عندما بَلَغَهُم أثناء المعركة أن "كرز بن جابر المُحاربي" يريد أن يَمُدّ المشركين برجاله ليقاتلوا معهم، فشَقَّ ذلك على أصحابك، فقلتَ لهم -: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ مِن السماء إلى أرض المعركة، يُثبِّتونكم، ويقاتلون معكم؟، ﴿بَلَى﴾: أي يَكفيكم هذا المَدَد، وهناك بشارة أخرى، وهي أنكم ﴿إِنْ تَصْبِرُوا﴾ على لقاء العدو ﴿وَتَتَّقُوا﴾ اللهَ في جميع أحوالكم، فتفعلوا ما يُرضيه وتنتهوا عما يُغضِبُه، ﴿وَيَأْتُوكُمْ﴾ أي مَدد المشركين ﴿مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا﴾: أي على الفور مُسرعين لقتالكم (يظنون أنهم سوف يَستأصلونكم)، فحينئذٍ سوف ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ ﴿مُسَوِّمِينَ﴾: يعني إن هؤلاء الملائكة قد مَيَّزُوا أنفسهم وخيولهم بعلاماتٍ واضحات.

♦ فلَمَّا قعد "كرز" عن إمداد قريش بالمقاتلين: لم يَمُدّ اللهُ تعالى رسوله والمؤمنين بهذا العدد من الملائكة، لأنه سبحانه وَعَدَهم أن يَمُدَّهم بذلك العدد في حالة مَجيء مَدد المُشركين – وهم رجال "كرز" – مُسرعين، فلمَّا لم يأتوا، لم يَزدهم اللهُ على الألْف التي أمَدَّهم بها عندما استغاثوه في أول المعركة، كما قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾.

الآية ١٢٦، والآية ١٢٧، والآية ١٢٨: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾: أي وما جعل اللهُ هذا الإمداد بالملائكة يوم بدْر ﴿إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، وقد جعل تعالى ذلك النصر ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾: أي لِيَهْلِكَ فريقًا ﴿مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل، ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾: أي ويجعل مَن نَجا منهم – من القتل – يرجع حزينًا، قد ضاقت عليه نفسه، يَظْهر عليه الذل والعار أمام أهله.

– ثم قال الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾: أي ليس لك مِن أمْر العباد شيء، بل إنّ الأمر كله للهِ تعالى وحده لا شريك له، ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: ولعل بعض هؤلاء الذين قاتلوك أن تنشرح صدورهم للإسلام فيُسلِموا، فيتوب اللهُ عليهم، وقد كان، فيَكفيك إسلام عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد (الذي كان أحد أسباب هزيمة المسلمين في غزوة "أحد")، ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ يعني: ومَن بَقي على كُفره منهم بعد أن نَجا من القتل، فإنّ اللهَ يُعذبه في الدنيا والآخرة بسبب ظلمه وكفره.

♦ واعلم أن هذه الجملة: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ هي معطوفة على قوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾، أي كأنّ الله تعالى أراد أن يقول: (وقد جعل تعالى ذلك النصر لِيَقْطَعَ فريقًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بالقتل، أَوْ يَكْبِتَ مَن نجا منهم فَيَنْقَلِبُوا إلى أهلهم خَائِبِينَ يَظْهر عليه الذل والعار، أَوْ يَتُوبَ عَلَي مَن شاء منهم، أَوْ يُعَذِّبَ مَن بَقي منهم على كُفره فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ)، وبهذا تكون الجملة: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾: هي جملة اعتراضية بين الجملتين، وذلك للتأكيد على أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس له من أمْر العباد شيئ، فلا يَملك لهم ضراً ولا نفعاً، فكيف بمَن هو دونَهُ صلى الله عليه وسلم؟!، فلذلك لابد أن يَعلم العبد أنه لا يُقصَدُ في الدعاء وقضاء الحوائج إلا اللهُ تبارك وتعالى، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعِن بالله) (والحديث في صحيح الجامع برقم: ٧٩٥٧).

الآية ١٢٩: ﴿وَلِلَّهِ﴾ وحده جميع ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ بفضله ورحمته، ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ بعدله وحِكمته ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لذنوب عباده التائبين، ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم.

الآية ١٣٠، والآية ١٣١، والآية ١٣٢: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ أي احذروا الرِّبا بجميع أنواعه، ولا تأخذوا في القرض زيادة على أصول أموالكم (ولو كانت تلك الزيادة قليلة)، فكيف إذا كانت هذه الزيادة تتضاعف كلما حانَ موعد سداد الدين؟!، (واعلم أنّ بعض العلماء يَرون أن هذه الآية منسوخة بعموم تحريم الرِّبا في سورة البقرة، واللهُ أعلم).

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ – بالتزام شرعه – ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: أي لتفوزوا في الدنيا والآخرة، ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾: أي اجعلوا لأنفسكم وقاية بينكم وبين النار ﴿الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ فيما أمَركم به من الطاعات وفيما نهاكم عنه مِن أكْل الربا وغيره ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: أي لِتُرحَموا، فلا تعذبوا أبداً (لأنّ كلمة: "لعل"، وكلمة: "عسى"، إذا جاءت من الله تعالى فإنها تفيد الوجوب وتأكيد الوقوع).

****

٨. تفسير الربع الثامن من سورة آل عمران (*)

الآية ١٣٣، والآية ١٣٤: ﴿وَسَارِعُوا﴾ بطاعتكم لله ورسوله ﴿إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ واسعةٍ ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وهم ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾ أموالهم ﴿فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾: أي في حال يُسرهم، وكذلك في حال عُسرِهم، ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾: أي والذين يُمسكون ما في أنفسهم من الغيظ بالصبر.

♦ واعلم انَّ أفضل وسيلة لِكَظم الغيظ وطَرْد الغضب بإذن اللهِ تعالى هي:

أولاً: (أن تُكثِر – وبقوة – من الاستعاذة باللهِ تعالى من الشيطان الرجيم، بشرط أن تقول الاستعاذة بصِدق اللُّجوء إلى اللهِ تعالى، وطلب العِصمة والحِفظ منه سبحانه).

ثانياً: (احتقار النفس، وعدم رؤيتها وتعظيمها، لأنها عاصية للهِ تعالى، بمعنى أن تَكْرَه نفسك العاصية، لأنها هي التي أوقعتك في الذنوب والمعاصي، وهي التي جَرَّأتكَ على حُرُمات ربك، وهي السبب فيما أنت فيه من البلاء، فلذلك هي لا تستحق أن تَغضب لها، ولا أن تَنتصر لها، لأنها أخَسّ وأحقر مما قيل فيها، فلذلك تقول لها: (مَن أنتِ حتى أدافع عنكِ) (لا شيء)، وكذلك تتذكر أنه إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لم يغضب لنفسه، فهل تغضبُ لها أنت؟!)

♦ ومِن لَطيفِ ما يُذكَر أنّ أحد الدُعاة كانَ إذا قيل له: (إنَّ فلاناً قد قال في حقك كذا وكذا) – مع أنّ هذا الفعل خاطئ، لأنّ اللهَ تعالى يقول: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ - المهم أنّ هذا الشَيخ كانَ إذا قيل له ذلك، تذكَّرَ احتقاره لنفسه، فكانَ يقول: (أنا في الوَحْل والطين، دَعْكَ مِنِّي)، وهذه نقطة هامة جداً، لأنّ تذكُّر حَقارة النفس العاصية – عند الغضب – يَجعلك تتحكم في أعصابك، حتى تكون ردود أفعالك مُنضبطة.

(*) وهي سلسلة تفسير لآيات القرآن الكريم بأسلوب بسيط جدًّا، وهي مُختصَرة من (كتاب: "التفسير المُيَسَّر" (بإشراف التركي)، وأيضًا من "تفسير السّعدي" ، وكذلك من كتاب: " أيسر التفاسير" لأبو بكر الجزائري) (بتصرف)، عِلمًا بأنّ ما تحته خط هو نص الآية الكريمة، وأما الكلام الذي ليس تحته خط فهو التفسير.

– واعلم أن القرآن قد نزلَ مُتحدياً لقومٍ يَعشقون الحَذفَ في كلامهم، ولا يُحبون كثرة الكلام، فجاءهم القرآن بهذا الأسلوب، فكانت الجُملة الواحدة في القرآن تتضمن أكثر مِن مَعنى: (مَعنى واضح، ومعنى يُفهَم من سِيَاق الآية)، وإننا أحياناً نوضح بعض الكلمات التي لم يذكرها الله في كتابه (بَلاغةً)، حتى نفهم لغة القرآن.

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾: أي والذين إذا قَدَروا أن يُعاقبوا مَن ظلمهم: عَفَوا عنه، لأنهم يعلمون أنّ اللهَ يَغفرُ لهم ما فعلوه في حقه، فلماذا لا يَغفرون هم ما يَفعله الخَلق في حقهم؟!، كما قال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لكم﴾؟، ولكنْ بشرط أن تكون نتيجة هذا العفو: إصلاحٌ، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، بمعنى أنك إذا وجدتَ هذا الشخص – الذي قد عفوتَ عنه – يَتمادى في الإساءة والإيذاء، فهذا لا ينفع معه العفو، لأنه يظن بذلك أنك ضعيف، ولا يَفهم أنك تعفو عنه لله، فهذا من الممكن أن تقول له: (الله يسامحك)، ولكنْ تقولها له بشدة، وبِوَجْهٍ غاضب، وذلك لأنّ تغيُّر الوجه بالغضب عند قوْل كلمة: (الله يسامحك)، يُوحي لَمن أمامك بأنك قادرٌ على مُعاقبته، وإنما يمنعك من ذلك خوفك من الله.

♦ وأمّا الذي ينفع معه العفو فهو الذي – إذا عفوتَ عنه – يتوقف عن ظلمه وأذاه وإساءته، ويَعتبر أنّ عفوك هذا جميلٌ يَحمله في رقبته إلى يوم القيامة.

♦ ومِن لَطيفِ ما يُذكَر أنّ أحد الناس كانَ قد التقى أثناء العُمرة بأحد الأشخاص الذين ظلموه وآذوه أشد الإيذاء، فقال له ذلك الشخص الظالم: (سامحني)، فقال له: (لا أستطيع أن أسامحك بعد كل الذي فعلته معي، لا أقدر)، ثم لَمَّا طاف شوطاً بالكعبة: لَقِيَهُ مرة أخرى أمامه، فقال له: (اعلم أنني قد سامحتك حتى يسامحني الله، وإلاَّ، فماذا سأستفيدُ أنا إذا أنت دخلتَ جهنم؟)، وكانَ أحد الناس يقول لِخُصومه (الذين اغتابهم وآذاهم): (إن لم تسامحوني، فأنا أشْهِدُ اللهَ أنني قد سامحتكم فيما كانَ منكم في حقي)، فكان بذلك يُرَقق قلوبهم، فيُسامحوه.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: وهذا هو الإحسان الذي يُحب اللهُ أصحابه.

الآية ١٣٥: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ أي ارتكبوا ذنبًا كبيرًا، ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بارتكاب صغائر الذنوب: ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾: أي ذكروا وَعْدَ اللهِ ووعيده، فتذكَّروا أنهم قد يُحرَمون من الجنة (إذا خُتِمَ لهم بذلك، وماتوا على المعاصي مِن غير توبة، ولم يُوَفقوا لقول الشهادتين بسبب ذنوبهم)، وتذكَّروا أنهم لا يَتحملون أقلّ قدْر من عذاب الله، وهو لِبس النعلين الذين تغلي الدماغ من شدة حَرّها وسخونتها، فعندما تذكَّروا ذلك، وخافوا عقابَ اللهِ تعالى، وخافوا حرمانهم من نعيم الجنة: ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾: أي لجأوا إلى ربهم تائبين، مُستغفرين نادمين، يَطلبون منه أن يَغفر لهم ذنوبهم، ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾: أي وهم مُوقنون أنه لا يَغفر الذنوب إلا الله، فليسَ لأحدٍ من البشر أن يَدَّعِي أنّ معه (صَكّ غفران) يَغفر به الذنوب، وإلاَّ، فليَغفر ذنوبه هو، ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا﴾، (واعلم أن الإصرار: هو البقاء على المخالفة، والعزم على المعاودة، كأن يَنوي أن يفعل معصية معينة في الأسبوع

القادم، فهذا ليس بتائب، وليس من المتقين)، ﴿وَهُمْ﴾ - أي المتقون - ﴿يَعْلَمُونَ﴾ أنهم إن تابوا بصِدق: تابَ اللهُ عليهم.

الآية ١٣٦: ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات العظيمة ﴿جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، فيَستر عليهم ذنوبهم ولا يُعاقبهم عليها، ﴿وَجَنَّاتٌ﴾ - أي ولهم حدائق عجيبة - ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (المغفرة والجنة).

الآية ١٣٧: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾: يُخاطب اللهُ المؤمنين لَمَّا أُصيبوا يوم "أُحُد" - تَعْزِيَةً لهم - بأنّ سُنَن اللهِ تعالى قد مَضت في أممٍ قبلهم، فابتُلِيَ المؤمنون منهم بقتال الكافرين، فكان النصر في النهاية للمؤمنين، وإن شَكَكْتم في ذلك: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأبدانكم وقلوبكم، وتأمَّلوا في الهالكين كعادٍ وثمود، وفي ديارهم ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، فإنكم لن تجدوهم إلا مُعَذَّبين بأنواع العقوبات الدُنيوية، قد خَوَت ديارهم، وذهب عِزُّهم ومُلْكُهم، وزالَ نعيمهم وفخرهم، أليس في هذا أعظم دليل على صِدْق ما جاءت به الرُسُل؟

الآية ١٣٨: ﴿هَذَا﴾ القرآن ﴿بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾: أي يَتبيَّنون به الحق من الباطل، ﴿وَهُدًى﴾: أي وإرشاد إلى طريق الحق، ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾: أي وتذكيرٌ تَخْشَع له قلوب المتقين، وهم الذين يخشون الله تعالى، (وقد خَصَّهم اللهُ بتلك الموعظة لأنهم المنتفعون بها دونَ غيرهم).

♦ ولذلك نلاحظ أنّ اللهَ تعالى عندما يَذكر فضائل القرآن ومَنافعه، فإنه يَخُصّ بها عباده المؤمنين، وعباده المتقين، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾، أمَّا عندما ذكَرَ سبحانه فوائد العسل قال: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾.

الآية ١٣٩: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾: أي ولا تضْعُفوا - أيها المؤمنون - عن قتال عدوكم، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ لِمَا أصابكم في "أُحُد"، ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾: أي وأنتم الغالبون، والعاقبة لكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ باللهِ تعالى، ومُطيعين له ولرسوله.

الآية ١٤٠، والآية ١٤١: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾: يعني إنْ أصابكم أيها المؤمنون جراحٌ وقتل في غزوة "أُحُد" فحزنتم لذلك، فقد أصاب المشركين جراحٌ وقتل مِثل ذلك في غزوة "بدر"، ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾: أي وتلك الأيام يُصَرِّفها اللهُ بين الناس (نصرٌ مَرَّة وهزيمةٌ مَرّة)، لِما في ذلك من الحكمة، ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: أي وحتى يَظهر ما عَلِمَهُ اللهُ في قديم الأزل، لِيَتميَّز المؤمن الصادق مِن غيره ﴿وَيَتَّخِذَ

مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾: أي وليُكْرِمَ أقوامًا منكم بالشهادة، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم، الذين قعدوا عن القتال في سبيله، ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: أي وقد كانت هذه الغزوة اختبارًا وتصفية للمؤمنين من ذنوبهم وعيوبهم، وتخليصًا لهم من المنافقين المُخالطين لهم، ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾: أي بإذهابهم وإفناء وجودهم، فإنّ هذا الدرس قد نفع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بعد، فلم يخرجوا عن طاعة نبيهم، وبذلك توالت انتصاراتهم حتى أذهبوا ريح الكفر والكافرين من أرض الجزيرة العربية كلها، بل وخارج الجزيرة، فالفتوحات التي فتحها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغرب والشرق لم يفتحها غيرهم مِمَّن جاء بعدهم ﴿لا من التابعين ولا من غيرهم﴾، وهذا إنجازُ وَعْدِ الله تعالى لهم في قوله: ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

الآية ١٤٢: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ دونَ أن تُبْتَلُوا بالقتال والشدائد؟ ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾: أي ولابُدَّ أن تُبتَلوا بذلك حتى يَعلم الله – عِلماً ظاهراً للخلق – المُجاهدين منكم في سبيله، ﴿وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ على مقاومة الأعداء.

الآية ١٤٣: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾: أي ولقد كنتم تتمنون لقاء العدو، لتنالوا شرف الجهاد والاستشهاد (الذي ناله إخوانكم في غزوة "بدر")، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾: أي مِن قبل أن تلقوا الموتَ، وتروهُ أمام أعيُنكم في غزوة "أُحُد"، ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾: أي فها هو ذا قد حصل لكم الذي طلبتموه، إذاً فقاتِلوا واصبروا.

الآية ١٤٤: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ يعني إنه صلى الله عليه وسلم مِثل باقي الرسل، مُهَمَّتهم واحدة، وهي تبليغ رسالات ربهم وتنفيذ أوامره، ليسوا بمُخلَّدين، وليس بقاؤهم شرطاً في امتثال أوامر الله، بل الواجب على الأمم: عبادة ربهم في كل وقت وبكل حال، ﴿أَفَإِنْ مَاتَ﴾ بانقضاء أجله، ﴿أَوْ قُتِلَ﴾ كما أشاع الأعداء: ﴿انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾: أي رجعتم عن دينكم وتركتم ما جاءكم به نبيكم؟، ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾، وإنما يَضر نفسه ضررًا عظيمًا، أما مَن ثبت على الإيمان وشكر ربه على نعمة الإسلام، فإنّ اللهَ يَشكر له عمله ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ أحسن الجزاء.

الآية ١٤٥: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وَقَدَره، فقد كتب تعالى ذلك على عباده ﴿كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾: وهو اللوح المحفوظ الذي كُتِبَت فيه آجال الناس بمواقيتها، فلا تتقدم عنه ولا تتأخر، ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾: أي ومَن يَطلب بعمله عَرَض الدنيا والثناء من الناس، نُعطِهِ ما قسمناه له مِن رزق، وليسَ له نصيب في الآخرة، ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾: أي ومَن يَطلب بعمله ثوابَ الله في الآخرة، نؤته جزاءه وافرًا في الآخرة، مع ما لَه في الدنيا مِن رزقٍ مقسوم، فهذا قد شَكَرَنا بطاعته وجهاده ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ خير الجزاء.

الآية ١٤٦، والآية ١٤٧: ﴿وَكَأَيِّنْ﴾: أي وكثير ﴿مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ أي قاتل معه جُموعٌ كثيرة مِن أتباعه الصالحين، ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾: أي فما ضعفوا نفسياً ولا قلبياً ولا إيمانيا ﴿لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ مِن قتلٍ وجِراح، ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾: يعني وما عَجَزوا جسدياً عن مقاتلة الأعداء بعد ذلك، ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾: أي ولا خضعوا لعدوهم، إنما صبروا على ما أصابهم، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾، ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ في أثناء المعركة ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ فلا تخذلنا أثناء القتال بسببها، ﴿وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾: أي واغفر لنا ما وقع منا مِن تجاوُز في أمْر ديننا، ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ حتى لا نَفِرَّ من قتال عَدُوِّنا، ﴿وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ الذين جحدوا وحدانيتك ونُبُوَّة أنبيائك.

الآية ١٤٨: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ وذلك بالنصر على أعدائهم، وبالتمكين لهم في الأرض، ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾: أي وآتاهم الجزاء الحسن في الآخرة، وهو رضاهُ عنهم، وهم في جنات النعيم الأبدي الذي قد سَلَمَ مِن جميع المُنكِّدات والمُنغِّصات، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا عبادتهم لربهم، وأحسنوا معاملة خلقه.

الآية ١٤٩، والآية ١٥٠: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ أي يُضِلوكم عن طريق الحق، ويَرُدُّوكم عن دينكم ﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾: أي فتعودوا بالخُسران المُبين والهلاك المُحَقَّق، فاعلموا أنهم لن ينصروكم ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ أي ناصركم ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾.

الآية ١٥١: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ في الدنيا ﴿بِمَا أَشْرَكُوا﴾: أي بسبب إشراكهم ﴿بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي آلهة مزعومة، ليس لهم دليل على استحقاقها للعبادة مع الله تعالى، ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾: أي ومكانهم الذي يَأوون إليه في الآخرة هو النار، ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾: أي وَبِئْسَ مُقامهم: جهنم.

****

٩. تفسير الربع التاسع من سورة آل عمران (*)

الآية ١٥٢: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ مِن نَصْرٍ على المشركين في أول القتال في غزوة "أُحُد" ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾: أي حين كنتم تقتلون الكفار، وذلك بإذنه تعالى لكم بقتالهم، ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾: أي حتى إذا جَبُنتم وضعفتم عن القتال، ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾: أي واختلفتم: هل تبقون في مواقعكم؟، أو تتركونها لجمع الغنائم مع مَن يجمعها؟، ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾ أمْرَ رسولكم حين أمَرَكم ألاَّ تفارقوا أماكنكم بأيّ حال، فساعتها حلَّت بكم الهزيمة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ مِن النصر (في أول المعركة)، وتبيَّن أنّ ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾.

– وقد أصابكم الخوف والرعب، حينما رأيتم أنفسكم محصورين بين رُماة المشركين ومُقاتِليهم، ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾: أي ثم صرفكم اللهُ عن عدوكم، بأنْ فررتم من القتال لتنجوا بأنفسكم، وقد قدَّرَ اللهُ حدوث ذلك كله ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾: أي ليختبركم، فيرى المؤمن الصادق من المنافق الكاذب (في الأقوال والأفعال)، ويرى الصابر مِن غيره، ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ بعد أنْ عَلِمَ سبحانه ندمَكم وتوبتكم، ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

الآية ١٥٣: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾: أي اذكروا حين كنتم تَصْعَدون الجبل هاربين من أعدائكم، ﴿وَلَا تَلْوُونَ﴾ رؤوسكم ﴿عَلَى أَحَدٍ﴾ يعني ولا تلتفتون إلى أحدٍ لِمَا أصابكم من الدهشة والخوف والرعب، ﴿وَالرَّسُولُ﴾ ثابت في الميدان، و ﴿يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾: أي يناديكم مِن خلفكم قائلاً: (إليَّ عبادَ الله)، وأنتم لا تسمعون ولا تنظرون، ﴿فَأَثَابَكُمْ﴾: أي فكان جزاؤكم على فِعلكم أن أنزل اللهُ بكم ﴿غَمًّا بِغَمٍّ﴾: أي غَمَّاً يَتبَعُ غَمَّاً: (إذ أصابكم غَمٌّ بانهزامكم، وغَمٌّ آخر بفوات الغنيمة، وغَمٌّ ثالث أنساكم كل غَمّ، وهو سماعكم أنّ محمداً صلى الله عليه وسلم قد قُتِل)، (وقد جعل اللهُ اجتماع هذه الأمور من باب التربية لعباده المؤمنين، وذلك لمكانتهم عنده)، ثم لَطَفَ اللهُ تعالى بكم، فجعلكم تتأكدون أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يُقتَل، فهانت عليكم تلك المصائب، وفرحتم بوجوده

(*) وهي سلسلة تفسير لآيات القرآن الكريم بأسلوب بسيط جدًّا، وهي مُختصَرة من (كتاب: "التفسير المُيَسَّر" (بإشراف التركي)، وأيضًا من "تفسير السّعدي" ، وكذلك من كتاب: " أيسر التفاسير" لأبو بكر الجزائري) (بتصرف)، عِلمًا بأنّ ما تحته خط هو نص الآية الكريمة، وأما الكلام الذي ليس تحته خط فهو التفسير.

– واعلم أن القرآن قد نزلَ مُتحدياً لقومٍ يَعشقون الحَذفَ في كلامهم، ولا يُحبون كثرة الكلام، فجاءهم القرآن بهذا الأسلوب، فكانت الجُملة الواحدة في القرآن تتضمن أكثر مِن مَعنى: (مَعنى واضح، ومعنى يُفهَم من سِيَاق الآية)، وإننا أحياناً نوضح بعض الكلمات التي لم يذكرها الله في كتابه (بَلاغةً)، حتى نفهم لغة القرآن.

المُهوِّن لكل مصيبة ومِحنة، وذلك ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ مِن نَصرٍ وغنيمة، ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ مِن خوفٍ وهزيمة، ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

الآية ١٥٤: ﴿ثُمَّ﴾ كان من رحمة الله بكم أيها المؤمنون المخلصون أن ﴿أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً﴾ أي ألقى في قلوبكم اطمئنانًا وثقة في وعد الله تعالى، مِن بعد ما نزل بها مِن هَمّ وغَمّ، وكان مِن أثر هذا الأمن والاطمئنان أن أنزل عليكم ﴿نُعَاسًا يَغْشَى﴾ أي يُغطي ﴿طَائِفَةً مِنْكُم﴾ وهم أهل الإخلاص واليقين، ﴿وَطَائِفَةٌ﴾ أُخرى ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي أهَمَّهم تخليص أنفسهم خاصَّةً دونَ المؤمنين، و ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾: يعني إنهم أساؤوا الظن بربهم وبدينه وبنبيه صلى الله عليه وسلم، وظنوا أنّ اللهَ لن يُتِمَّ أمْرَ رسوله، وأن الإسلام لن تقوم له قائمة، ولذلك تراهم نادمين على خروجهم للقتال، فـ ﴿يَقُولُونَ﴾ لبعضهم: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي هل كان لنا مِن اختيار في الخروج للقتال؟

﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ فهو الذي قدَّرَ خروجكم وما حدث لكم، وهم ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ من الحسرة على خروجهم للقتال، فـ ﴿يَقُولُونَ﴾ سِرًّا فيما بينهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾: أي لو كان لنا الاختيار، ما خرجنا ولا قاتلنا ولا أصابنا الذي أصابنا، فأطْلَعَ اللهُ رسوله على سِرِّهِم، وقال له: ﴿قُلْ﴾ لهم: إنّ الآجال بيد الله وحده، و ﴿لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾، وقدَّر اللهُ لكم أن تموتوا: ﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي لَخرج الذين كَتب اللهُ عليهم الموت إلى حيث يُقْتلون، ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ﴾: يعني وما جعل اللهُ ذلك – الذي حدث في "أُحُد" – إلا ليختبر ﴿مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ من الشك والنفاق، ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾: أي وليَميزَ الخبيث من الطيب، وليَظهر للناس أمر المنافق (مِن أقوالِهِ وأفعالِه)، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

الآية ١٥٥: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾: يعني إن الذين فرُّوا عن القتال يوم التقى المؤمنون والمشركون في غزوة "أُحُد": ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾: يعني إنما أوقعهم الشيطان في هذا الذنب العظيم (وهو الفرار من الجهاد) بسبب بعض ما اكتسبوه مِن مُخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث تركوا مواقعهم، ونزلوا لطلب الغنيمة، فخذلهم اللهُ بسبب ذلك الذنب، فلم يُثبِّت أقدامهم في القتال، ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾: أي تجاوَزَ عنهم فلم يعاقبهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾، فيُمهِلُ عباده حتى يتوبوا، فيتوبَ عليهم ويَغفر لهم، ولو لم يكن حليماً: لَعاقبَ مِن أول ذنب، ولم يُمَكِّن أحداً من التوبة والنجاة.

الآية ١٥٦: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي إذا خرجوا يَبحثون في أرض الله عن معاشهم، ﴿أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾: يعني أو كانوا مع الغُزاة المقاتلين (ثم ماتوا أو قُتِلوا)، فإنهم يُعارضون القدَر، ويقولون: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا﴾: يعني لو لم يخرج هؤلاء، وأقاموا معنا ﴿مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾: أي وعندما يتذكر المنافقون هذا الاعتقاد الفاسد (وهو أنهم لو كانوا قعدوا عن القتال مع أصحابهم المنافقين، ما أصابهم شيئاً)، فإنهم بذلك يزدادون حُزنًا وحسرة تُمزقهم، بسبب سخطهم على قضاء الله وقدره، أمّا المؤمنون فإنهم يعلمون أنّ ذلك قد حدث بقدر الله تعالى، فيَهدي اللهُ قلوبهم، ويُخفف عنهم المصيبة، ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي﴾ مَن قدَّر له الحياة - وإن كان مسافرًا أو غازيًا - ﴿وَيُمِيتُ﴾ مَن انتهى أجله - وإن كان مقيمًا - ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، وسيرى سبحانه: هل ستنتهون عن السخط على قضاءه أو لا، وسيُجازيكم على ذلك.

الآية ١٥٧: ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ مَوتةً (طبيعية) بانتهاء آجالكم أثناء المعركة: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ﴾: أي لَيَغفِرَنَّ اللهُ لكم ذنوبكم، ولَيَرحَمَنَّكم رحمة مِن عندِه، فتفوزون بجنات النعيم، وذلك ﴿خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾: أي خيرٌ من الدنيا وما يَجمعه أهلها فيها.

الآية ١٥٨: ﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ﴾ بانقضاء آجالكم في هذه الحياة الدنيا، فمُتُّم على فُرُشكم، ﴿أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ في ساحة القتال: ﴿لَإِلَى اللَّهِ﴾ وحده ﴿تُحْشَرُونَ﴾ فيُجازيكم بأعمالكم.

الآية ١٥٩: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾: أي فبسبب رحمةٍ مِن الله لك ولأصحابك، أنعم اللهُ عليك فكنتَ رفيقًا بهم، وهذا يُوضح كمال رسول الله صلى الله عليه وسلم الخُلُقِي، ويوضح أيضاً فضل الصحابة، وكرامتهم عند ربهم، ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾: أي ولو كنت سيِّئ الخُلق قاسي القلب، لانْصَرَفَ أصحابك من حولك، ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾: أي فلا تؤاخذهم بما كان منهم في غزوة "أُحُد"، ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ الذي يحتاج إلى مشورة، ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ على أمر من الأمور - بعد الاستشارة - ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾: أي فامضِ في تنفيذ هذا الأمر معتمدًا على اللهِ وحده، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ عليه.

الآية ١٦٠: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ﴾: يعني إن يُمدِدكم اللهُ بنَصرِهِ ومَعُونته: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ ﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾: أي فمَن هذا الذي يستطيع نَصرَكم مِن بعد خذلان اللهِ لكم؟ ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

الآية ١٦١: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ أي يأخذ الغُلول (وهو أخْذ شيء من الغنيمة قبل تقسيمها)، ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ﴾ منكم: ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ﴾ حاملاً له ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لِيُفضَحَ به في الموقف المشهود، ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

الآية ١٦٢ ، والآية ١٦٣: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ يعني: أفمن كان مُتَّبعاً لِمَا يُرضي الله من الأقوال والأفعال والنيَّات ﴿كَمَنْ﴾: أي هل يستوي مع مَن ﴿بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾: أي رجع بغضبٍ من الله، لانغماسه في المعاصي، ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ﴾: أي فاستحق بذلك سكن جهنم ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾؟ لا يستويان أبداً، ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾: أي أصحاب الجنة – المُتَّبعون لِمَا يُرضي الله تعالى – متفاوتون في الدرجات، وأصحاب النار – المُتَّبعون لِمَا يُغضِبُ الله – متفاوتون في الدَرَكات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾، ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

الآية ١٦٤: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ﴾: أي لقد أنعم الله ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ من العرب؛ ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي عَرَبيّاً مِن جنسِهم ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: أي يُطَهِرهم من الشرك والأخلاق الفاسدة ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾: أي يُعَلِّمهم القرآن والسُنَّة، ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾: يعني ولقد كانوا مِن قبل هذا الرسول في جهلٍ وضلالٍ ظاهر.

الآية ١٦٥: ﴿أَوَلَمَّا﴾ يعني: أفعندما ﴿أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ أيها المسلمون، وهي جراحكم وقتلكم يوم "أُحُد"، ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾ مِن المشركين في يوم بدْر، ﴿قُلْتُمْ﴾ – مُتعجبين –: ﴿أَنَّى هَذَا﴾: يعني كيف يكون هذا ونحن مسلمون، ورسول الله فينا، وهؤلاء مشركون؟!، ﴿قُلْ﴾ لهم أيها الرسول: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي قد أصابكم ذلك بسبب مُخالفتكم أمْرَ رسولكم وإقبالكم على جَمْع الغنائم، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فيفعل ما يشاء، ويَحكم ما يريد، ولا مُعَقِّب لِحُكمه.

الآية ١٦٦، والآية ١٦٧، والآية ١٦٨: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ﴾ يعني: وكل ما أصابكم مِن جراح أو قتلٍ ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ في أُحُد: ﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾: أي فذلك كله بقضاء الله وقدَره، ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: أي وليظهر ما عَلِمَه الله في قديم الأزَل لِيَتميَّز المؤمنون الصادقون منكم ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾، ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾: أي وهؤلاء المنافقون هم الذين كشف الله ما في قلوبهم عندما قال المؤمنون لهم: ﴿تَعَالَوْا قَاتِلُوا﴾ معنا ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا﴾ المشركين عنا بتكثيركم لعددنا، (حتى وإن لم تقاتلوا)، ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ أي لَوْ نَعْلَمُ أنكم تقاتلون أَحَدًا لَكُنَّا معكم عليهم، ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي في هذا اليوم ﴿أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ لأنهم ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي

بألسنتهم ﴿مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ في صدورهم، وهؤلاء هم ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ المنافقين – الذين أُصِيبوا مع المسلمين – أثناء قتالهم المشركين يوم "أُحُد" ﴿وَقَعَدُوا﴾ هم عن القتال: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ وقعدوا معنا: ﴿مَا قُتِلُوا﴾، ﴿قُلْ فَادْرَءُوا﴾ أي ادفعوا ﴿عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾ إذا جاءكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم بأنهم لو أطاعوكم ما قتِلوا، وأنكم قد نجوتم من الموت بقعودكم عن القتال.

****

١٠. تفسير الربع العاشر من سورة آل عمران (*)

الآية ١٦٩: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: أي في جوار ربهم (الذي جاهدوا مِن أجله، وماتوا في سبيله)، ﴿يُرْزَقُونَ﴾: أي يَجري عليهم رزقهم في الجنة، ويُنعَّمون.

الآية ١٧٠: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: أي لقد عَمَّتهم السعادة حين أعطاهم اللهُ من النعيم والرضا ما تَقَرُّ به أعينهم، ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾: أي وهم يَفرحون بإخوانهم المجاهدين (الذين فارقوهم وهم أحياء)، لِعِلْمِهم أنّ إخوانهم إذا استُشهِدوا في سبيل الله مُخلِصين له، فإنهم سوف يَنالون الخير الذي نالوه، و ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يَستقبلونه مِن أمْر الآخرة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا.

الآية ١٧١، والآية ١٧٢، والآية ١٧٣: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾: أي وإنهم في فرحةٍ غامرة بما أُعطاهم اللهُ مِن عظيم كرمه، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾: أي وبأنّ الله ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾: أي الذين لبُّوا نداء الله ورسوله، وخرجوا في أعقاب المشركين إلى" حمراء الأسد"، وذلك لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم رأى أن يَرفع معنويات أصحابه الذين جُرحوا وهُزِموا بأحُد، وأن يُرهِب أعداءَ الله تعالى، فأمَرَ مُؤذناً يُؤَذِّن بالخروج في طلب أبي سُفيان وجيشه، فاستجاب المؤمنون وخرجوا معه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾: أي رغم ما كان بهم من آلام وجراح، وبذلوا غاية جهدهم، والتزموا بطاعة نبيهم، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ﴾: أي لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِن هؤلاء المؤمنين ﴿وَاتَّقَوْا﴾ ربهم، فلم يُشركوا به ولم يَعصوه، فأولئك لهم ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

– وهؤلاء المؤمنون هم ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾: أي قال لهم بعض المشركين: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾: يعني إنّ أبا سُفيان ومَن معه قد أجمعوا أمْرهم على الرجوع إليكم لِقتلكم، فاحذروهم واخشَوا لقاءهم، فإنه لا طاقة لكم بهم، ﴿فَزَادَهُمْ﴾ ذلك التخويف ﴿إِيمَانًا﴾: أي يقينًا وتصديقًا بوعد الله لهم بالنصر عليهم، فساروا إلى حيث شاء الله، ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾: أي هو سبحانه كافينا شَرّ ما أرادوه بنا من الأذى، ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ الذي نُوَكِّل إليه أمورنا، ونفوضها إليه.

(*) وهي سلسلة تفسير لآيات القرآن الكريم بأسلوب بسيط جدًّا، وهي مُختصَرة من (كتاب: "التفسير المُيَسَّر" (بإشراف التركي)، وأيضًا من "تفسير السّعدي" ، وكذلك من كتاب: " أيسر التفاسير" لأبو بكر الجزائري) (بتصرف)، عِلمًا بأنّ ما تحته خط هو نص الآية الكريمة، وأما الكلام الذي ليس تحته خط فهو التفسير.

– واعلم أن القرآن قد نزلَ مُتحدياً لقومٍ يَعشقون الحَذفَ في كلامهم، ولا يُحبون كثرة الكلام، فجاءهم القرآن بهذا الأسلوب، فكانت الجُملة الواحدة في القرآن تتضمن أكثر مِن مَعنى: (مَعنى واضح، ومعنى يُفهَم من سِيَاق الآية)، وإننا أحياناً نوضح بعض الكلمات التي لم يذكرها الله في كتابه (بَلاغةً)، حتى نفهم لغة القرآن.

♦ فلمَّا قالوا ذلك، مَرَّ أحد حلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم بمعسكر أبي سُفيان، فسأله أبو سفيان عن الرسول صلى الله عليه وسلم، فأخبره أنه قد خرج في طلبكم ومعه جيش كبير وكُلُّهُم تَغَيُّظٌ عليكم، ونَصَحهم أن يَرحلوا، فألقى اللهُ الرعب في قلب أبي سفيان، فانهزم وهرب برجاله إلى مكة، خوفاً من رسول اللهِ وأصحابه، (واعلم أنّ في قوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾: دليلٌ على أن الإيمان يزيد وينقص، فيزيد بالطاعة، ويَنقص بالمعصية).

الآية ١٧٤: ﴿فَانْقَلَبُوا﴾ أي فرجعوا من "حمراء الأسد" إلى "المدينة" مع نبيهم ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾: أي بالثواب الجزيل، وبالمنزلة العالية، وبالنصر على الأعداء، وبالتوفيق للخروج بهذه الحالة، و ﴿لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾: أي وفازوا بالسلامة من القتل والقتال، ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ وذلك بطاعتهم لله ولرسوله، ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ عليهم وعلى غيرهم.

الآية ١٧٥: ﴿إِنَّمَا﴾ الذي يُصيبكم بالإحباط والكسل عن الجهاد هو ﴿ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ الذي جاءكم ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾: أي يُخوِّفكم أنصاره، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ لأنّهم ضِعافٌ لا ناصرَ لهم، ﴿وَخَافُونِ﴾ بالإقبال على طاعتي ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بي ومُتَّبعينَ لرسولي.

الآية ١٧٦: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾: أي لا تحزن أيها الرسول بسبب هؤلاء الكُفار لمسارعتهم في الجحود والضلال، ﴿إِنَّهُمْ لن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ بذلك الكُفر، إنما يَضرون أنفسهم بحِرمانها من نعيم الجنة، فأولئك ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا﴾ أي نصيباً من الخير ﴿فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

الآية ١٧٧: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا﴾ أي استبدلوا ﴿الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ بل ضَرَرُ فِعْلِهم يَعودُ على أنفسهم، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في نار جهنم.

الآية ١٧٨: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ﴾: أي لا يَحسبوا أننا إذا أَطَلْنا أعمارهم، ومَتَّعناهم بمُتَع الدنيا، ولم نؤاخذهم بكفرهم وذنوبهم، أنهم قد نالوا بذلك خيرًا لأنفسهم، ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾: يعني إنما نؤخر عذابهم وآجالهم: ليزدادوا ظلمًا وطغيانًا، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي يُهينهم ويُذلُّهم في الآخرة.

الآية ١٧٩: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ﴾ أي لِيَترك ﴿الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ مِن اختلاط المؤمن منكم بالمنافق ﴿حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ وذلك بالمِحَن والابتلاءات والتكاليف الشاقة (كالجهاد والهجرة والزكاة وصلاة الفجر)، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ الذي يَعلمه مِن عباده، فتعرفوا المؤمن منهم من المنافق، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي

﴿مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾: يعني غيرَ أنّ اللهَ تعالى يَختار مِن رُسُله مَن يشاء لِيُطلِعَهُ على بعض علم الغيب بِوَحْيٍ منه سبحانه، ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

الآية ١٨٠: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ﴾: أي لا يَحسبوا أنّ هذا البُخل خيرٌ لهم، ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾ فإنهم ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ﴾: أي سيكون هذا البُخل طوقًا مِن نارٍ يُوضَعُ في أعناقهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، فكيف تَبخَلونَ – أيها الناسُ – بأموالكم ولا تُنفِقونها في سبيل الله ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أي واللهُ سبحانه هو مالك المُلك، وهو الباقي بعد فناء خَلقه، فالمالُ مالُه، وسيَرِثُهُ عن قريب، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وسيُجازي كُلاًّ بما يَستحق، إذاً فآتوا زكاة ماله وتطوَّعوا بالصدقات المُستَحَبَّة، فإن ذلك خيرٌ لكم في دُنياكم وأُخراكم، واللهُ يَعلم وأنتم لا تعلمون.

الآية ١٨١: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ يَطلب مِنّا أن نُقرِضَهُ أموالاً ﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: أي وسنكتب أيضاً أنهم راضون بما كان مِن قَتْل آبائهم لأنبياء الله ظلمًا واعتداءً، وسوف نعاقبهم بذلك في الآخرة، ﴿وَنَقُولُ﴾ لهم وهم يُعَذَّبون في النار: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

♦ وقد أوضحنا معنى قول الله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾، في تفسير الآية رقم ﴿٢٤٥﴾، في الربع السادس عشر من سورة البقرة، فراجعها إن شِئت.

الآية ١٨٢، والآية ١٨٣: ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب الشديد – وهو عذاب الحريق – ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾: أي بسبب ما قدمته ﴿أَيْدِيكُمْ﴾ في حياتكم الدنيا من المعاصي القولية والفعلية والاعتقادية، وأنّ عذابكم ليس ظلما من اللهِ لكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

– وهؤلاء اليهود هم ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ – حينَ دَعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام –: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ أي أوصانا في التوراة ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ أي حَتَّى يَأْتِينَا بصدقةٍ يَتقرب بها إلى اللهِ، فتنزل نارٌ من السماء فتحرقها، ﴿قُلْ﴾ لهم أيها الرسول: أنتم كاذبون في قولكم لأنه ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دَعواكم.

الآية ١٨٤: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا﴾ إلى أقوامهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾: أي بالمعجزات الباهرات والحُجَج الواضحات، ﴿وَالزُّبُرِ﴾: أي وجاءوهم بالكتب السماوية، ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾: أي وهذه الكتب السماوية هي نورٌ يَكشف الظُلُمات، بِبَيَانِها ووضوحها.

♦ واعلم أن الواو الذي بين كلمة: ﴿الزُّبُرِ﴾، وبين كلمة: ﴿الْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾: تسمى (عطف بيان)، أي عطف توضيح، لِتُبَيِّن أنّ هذه الكتب هي كتب منيرة، وليس معناها أن (الزُّبُرِ)، شيئٌ، (وَالْكِتَابِ الْمُنِير) شيئٌ آخر، فكأنّ المعنى: ﴿وجاؤوا أقوامهم بالزُبُر التي هي كتب منيرة﴾، وهذا مِثل قوله تعالى: ﴿الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ أي ﴿الكتاب الذي يفرق بين الحق والباطل﴾، ومِثل قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ أي ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ، وهو هذا الكتاب المبين﴾.

الآية ١٨٥: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾: أي فمَن أكرمه ربه ونجَّاه من النار وأدخله الجنة، فقد نال غاية ما يَطلب، ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾: أي متعة زائلة، فلا تغترُّوا بها.

****

١١. تفسير الربع الأخير من سورة آل عمران (*)

الآية ١٨٦: ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾: أي لَتُخْتَبَرُنَّ أيها المؤمنون ﴿فِي أَمْوَالِكُمْ﴾ بإخراج النفقات الواجبة والمُستحَبَّة، وبالمصائب التي تصيبها (بالفقدان والسرقة وغير ذلك)، ﴿وَأَنْفُسِكُمْ﴾: أي وَلَتُخْتَبَرُنَّ في أَنْفُسِكُمْ بما يَجب عليكم من الطاعات، وبما يَحلُّ بكم مِن جراحٍ أو قتلٍ أو فَقْدٍ للأحباب، وذلك حتى يتميَّز المؤمن الصادق من غيره، ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ أي ما يُؤذي أسماعكم من ألفاظ الشرك والطعن في دينكم.

﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا﴾ على ذلك كله، ﴿وَتَتَّقُوا﴾: أي وتنشغلوا بتقوى الله تعالى (وذلك بلزوم طاعته واجتناب معصيته) ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾: يعني إنّ الصبر والتقوى من الأمور التي يُعزَمُ عليها عزماً قوياً، ويُنافَسُ فيها، ولا يُوَفَّقُ لها إلا أهل العزائم والهِمَم العالية، (وكذلك إن تصبروا وتتقوا، لا يَضركم أذى كيدهم لكم، كما أخبر تعالى بذلك في آيةٍ أخرى)، فجعل اللهُ تعالى (الصبر والتقوى): شرطان اشترطهما على عباده حتى يَكفيهم شر أعداءهم ومَكرهم، وحتى ينصرهم عليهم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾.

الآية ١٨٧: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي أخذ سبحانه العهد المؤكد عليهم فقال لهم: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ﴾ أي يَجب أن تُظهِروا ما في الكتاب ﴿لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ عنهم، ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾: أي فتركوا ذلك العهد ولم يلتزموا به، ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: أي وأخذوا ثمناً قليلاً مقابل كتمانهم للحق وتحريفهم للكتاب، ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾: أي فبئس هذا الشراء الذي يُضَيِّعون به ميثاق ربهم.

الآية ١٨٨: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾ مِن أفعالٍ قبيحة كاليهود والمنافقين وغيرهم، ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا﴾: أي وَيُحِبُّونَ أَنْ يُثني عليهم الناس ﴿بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾: أي بالخير والإصلاح الذي لم يفعلوه، والحق الذي لم يقولوه، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

(*) وهي سلسلة تفسير لآيات القرآن الكريم بأسلوب بسيط جدًّا، وهي مُختصَرة من (كتاب: "التفسير المُيَسَّر" (بإشراف التركي)، وأيضًا من "تفسير السّعدي" ، وكذلك من كتاب: " أيسر التفاسير" لأبو بكر الجزائري) (بتصرف)، عِلمًا بأنّ ما تحته خط هو نص الآية الكريمة، وأما الكلام الذي ليس تحته خط فهو التفسير.

– واعلم أن القرآن قد نزلَ مُتحدياً لقومٍ يَعشقون الحَذفَ في كلامهم، ولا يُحبون كثرة الكلام، فجاءهم القرآن بهذا الأسلوب، فكانت الجُملة الواحدة في القرآن تتضمن أكثر مِن مَعنى: (مَعنى واضح، ومعنى يُفهَم من سِيَاق الآية)، وإننا أحياناً نوضح بعض الكلمات التي لم يذكرها الله في كتابه (بَلاغةً)، حتى نفهم لغة القرآن.

الآية ١٨٩: ﴿وَلِلَّهِ﴾ وحده ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وما فيهما ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فذكَرَ سبحانه قدرته بعد ذِكر مُلكه، لِيُدَلِّل بذلك على قدرته على تحقيق وعده ووعيده، إذ هو سبحانه لا يُعارِضُهُ في قضاءه أحد، ولا يُعجِزُهُ شيء).

الآية ١٩٠، والآية ١٩١، والآية ١٩٢: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ﴾ بارتفاعها واتِّساعها، ﴿وَالأَرْضِ﴾ بجبالها وسهولِها وبحارها، ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: وَفِي اختلاف الليل والنهار مِن الطول والقِصَر، والظُلمة والنور، وتعاقبهما بأن يَخلفَ كلٌّ منهما الآخر ﴿لَآيَاتٍ﴾: أي لَدلائل عظيمة على وحدانية الله تعالى ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾: أي يَنتفع بهذه الآيات أصحاب العقول السليمة، وهم ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ في جميع أحوالهم، فيَذكرونه ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ – قائلين –: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾: أي ما أوْجَدتَ هذا الخَلق عَبثًا، ﴿سُبْحَانَكَ﴾ فأنت مُنَزَّه عن ذلك، بل خلقتَهما لِتُذكَرَ فيهما وتُشكَر، ولِتُعلِمَ عبادك أنّ الذي خَلَقَ السماوات والأرض قادرٌ على أن يُحيي الموتى، وأنّ ذلك أهْوَنُ عليه سبحانه مِن خَلق السماوات والأرض.

﴿فَقِنَا﴾: أي فأجِرْنا واحفظنا من ﴿عَذَابَ النَّارِ﴾ وذلك بتوفيقك لنا للأعمال الصالحة، وعِصمَتِنا من الأعمال الفاسدة المُوجبة لعذاب النار، ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾: يعني إنك مَن تُدخِلْه النار بذنوبه فقد أذللته وأهَنتَه، ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾: يعني وما للمذنبين الظالمين مِن أحدٍ يَدفع عنهم عقابَ الله يوم القيامة.

الآية ١٩٣، والآية ١٩٤، والآية ١٩٥: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ وهو نَبيّك محمد صلى الله عليه وسلم، ﴿يُنَادِي﴾ الناسَ ﴿لِلْإِيمَانِ﴾ بك والإقرار بوحدانيتك، والعمل بشرعك، فأمَرَهُم ﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾، ﴿فَآمَنَّا﴾: أي فأجَبنا دَعْوَتَه، وصدَّقنا رسالته، ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ الكبيرة، ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ الصغيرة، ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾: أي وألحِقنا بالصالحين في درجاتهم العالية في الجنة، ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى﴾ ألسنة ﴿رُسُلِكَ﴾ مِن نَصرٍ وتمكين وتوفيقٍ وهِداية، ﴿وَلَا تُخْزِنَا﴾: أي ولا تفضحنا أمام خلقك بذنوبنا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾: أي والذَكَرُ والأنثى هم سَواءٌ في أُخُوَّة الدين، وقَبول الأعمال والجزاء عليها، وكذلك في التكليف بالأحكام الشرعية، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنما النساء شَقائق الرجال) (والحديث في صحيح الجامع برقم: 2333).

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾ أي آذاهم الناس في عبادتهم لربهم والدعوةِ إليه، وتحَمَّلوا ذلك الإيذاء طلباً لرضا الله عنهم، ﴿وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ لإعلاء كلمة ربهم – حتى يُعبَدَ وحده ولا يُعبَدَ غيره

- ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾: أي لأَستُرَنَّ عليهم ما ارتكبوه من المعاصي، كما سترتُها عليهم في الدنيا، فلا أُحاسبهم عليها، ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ﴿ثَوَابًا﴾: أي جزاءً ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾: أي والله عنده خير الجزاء وهو: الجنة.

الآية ١٩٦، والآية ١٩٧: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾: أي لا يَخدعَنَّك - أيها الرسول - ما عليه أهل الكفر مِن سعةٍ في الرزق والعَيش، ومن انتقالهم من مكان إلى مكان للتجارة وطلب الأموال، فإنَّ هذا كلُّه ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾، وسوف يَزولُ عنهم عن قريب، ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ﴾ أي مَصيرهم ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أي وهي بِئسَ الفِراش والمُستقرُّ.

الآية ١٩٨: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ﴿نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾: أي هي مترلهم الدائم لا يَخرجون منه أبداً، ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ مما يَتقلب فيه الكافرون مِن نعيم الدنيا الرخيص.

الآية ١٩٩: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ إلهًا واحدًا لا شريك له، ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾: أي ويؤمنون بما أُنزِلَ إليكم (وهو القرآن)، ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾: أي ويؤمنون بما أُنزِلَ إليهم، ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾: أي متذللين لله تعالى، خاضعينَ له، ﴿لَا يَشْتَرُونَ﴾ أي لا يَستبدلونَ ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ مِن متاع الدنيا الزائل، ولا يَكتمون ما أنزل اللهُ إليهم، ولا يُحَرِّفونه كغيرهم من أهل الكتاب، ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

الآية ٢٠٠: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾ ﴿وَصَابِرُوا﴾: أي اغلبوا أعدائكم في الصبر، ﴿وَرَابِطُوا﴾: أي وأقيموا على جهاد عدوي وعدوكم، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

****

الفهرس

سلسلة كيف نفهم القرآن؟ ١
١. تفسير الربع الأول من سورة آل عمران ٢
٢. تفسير الربع الثاني من سورة آل عمران ٧
٣. تفسير الربع الثالث من سورة آل عمران ١٢
٤. تفسير الربع الرابع من سورة آل عمران ١٧
٥. تفسير الربع الخامس من سورة آل عمران ٢٣
٦. تفسير الربع السادس من سورة آل عمران ٢٧
٧. تفسير الربع السابع من سورة آل عمران ٣٢
٨. تفسير الربع الثامن من سورة آل عمران ٣٦
٩. تفسير الربع التاسع من سورة آل عمران ٤١
١٠. تفسير الربع العاشر من سورة آل عمران ٤٦
١١. تفسير الربع الأخير من سورة آل عمران ٥٠